حرب القوارير

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-06-151-9
الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2020.

منى تومية

حرب القوارير

رواية

إهداء

إلى كل النساء اللاتي آذتهن الحياة لطيبتهن، وأهدتهن جرعةً من الألم عوض باقة من الورود...

أنا آسفة بحجم هذا العالم لأجلكن!

ليس هناك سوى شيء واحد يمكنه أن يجعل الحلم مستحيلا: الخوف من الفشل.

باولو كويلو

01

كانت زخات المطر الناعمة تقبّل التربة الجافة لتعيد بعث الحياة فيها في تلك الأمسية من شهر آذار، التي كانت تلتحف وشاح القدر المفزع. من الشرفة يتراءى لي الناس يركضون هاربين من المطر الذي كان يمسحُ غبار الأيام المتعبة عن الشوارع. أبعدتُ زهرة الصبار القزم خاصتي. كان متحمسًا كثيرا للجفَاف، ولم تُغرهِ فِكرة أن يبْتَل، على خِلاف زهرة الأوركيد التي سببت بعضُ القطراتِ المُنْهمرَة فوق أزْهَارِها الأرجوانية تزاوجًا رهيبًا لِعطر الفانيلا مع قطرات المطر النقية. الأيام الأولى للربيع، حيث ينهمر الجمال لتظهر فيه الطبيعة العذراء في أوج صباها وفتنتها تغرق كل متأمل فيها كاشف لحلواتها.

عقد حاجبيه الكثيفين اللذين كانا على وشك الالتحام، عدّل في جلسته وأزاح عن ناظريه الجريدة الاقتصادِية، نظر نحوي كأنه يطالع شخصا غريبا عنه، اتسعت حدقتا عينيه الكستنائيتين كأنما لمح شبحًا. في إشارة مني رافعة رأسي أنتظر جوابا، كان جبينه يتفصد عرقا. تعثرت كلماته على أوتار حباله الصوتية التي خرجت معلنةً الحرب علي. تقع على سمعي كالجمر الحارق مخنوقة بالألم، حتى أنه وجد صعوبة في استعارة الألفاظ المناسبة. فشل في تبسيط اللغة وجعلها أسهل... تنهد مسعفًا الحريق الذي شب داخله فجأة، حتى أن يديه القويَتين عجزتا اليوم أن تمسكا بي باتزان دون إخفاء تلك الرجفة المربكة فيهما. ابتسامته الجافة كانت تخيب كلما أرادت أن تبزغ في وجهه الذي داهمهُ الخُسوفُ

فجأةً. أكانت الأرضُ أوضَح من عينيَّ لتُسنِد بصرك عليها!؟ قشعريرة باردة سرت في جسدي لما داهمتني مسحة حانية على ظهري محاولة انتزاع تلك الورقة من كفي. احمرت وجنتاها وفاضت مقلتاها بالدموع لتحاكيا فيضانات الميسسيبي كأنهما تعَاضِدان بكاء السماء في الخارج. احتك بصري بصعوبة الأذى الذي تعرضا إليه، وأُرهِق سمعي لسماع نشيج أمي وعويلها. ألقت بكل حملها هاوية على الكنبة في بكاء هستيري ممسكة بالورقة في يدها، كأنها تلقي بكل حملها دفعة واحدة عليها. إلى أي مدى بتنا لا نعرف بعضنا؟ وفي أي عالم ضاعت هوياتنا لتكسرها طابوهات التساؤلات والشكوك استعطافا لجواب في لحظة شخوص بصر عابر ضاعت فيها هوياتنا...؟ ألهذه الدرجة كان سؤالي مُزَعْزِعا ومُنَغِصًا لأناة واطمئنان مضْجع هذه العائلة؟ كيف يمكن لاسم مركبٍ أن يشُل مشاعر عائلة ويخرِسَها ويُبيّن عجْزها في اصطلاح معنى واحدٍ لهُويةِ هذا الرجُل الذي اقترن اسمه باسمي في شهادة ميلاد لي؟.

من أنا؟

رانَ الصمتُ للحظات، حشْرجَ بصوتِه في حلقه، كان يشبه صوت قرع طبول الحرب، وعيناه تجسان في وجل وإشفاق خَلل أصابعه بشعري، كأنما يريد أن يُطهِرهما من خطايا هذا العالم ودنسِه. قال بحنقٍ شَديد:

-جَميلٌ أن يكون للمرء عائلةٌ كبيرة...

نظرت إلى وجهه نظرة متفحصة ماسحة على لحيته الخفيفة البنية التي تتخللُهَا شُعيرات بيضَاء هامسة له: رُبّمَا. ولكنه شعور

لم أختبره قبلا، فعائلتي متكونةٌ منكما، أتظن أن الأمر جيد؟! فلطالما تاقت نفسي لأخٍ أو أختٍ يُقاسمَاني اللعب، يشاطرانني الحياة، الشطيرة، فطُور الصباح...

قالها في عجالة كأنما يريد أن يتأكد من عدم بقاء كلماته عالقة في أذني. أردف قائلا:

- لكن الله يحبك، لذلك منح لك أمًا، وأبًا أخريَين.

بقي معلقا عينيه الواسعتين عليّ وهو يقولها على مهل، ثم زفر وكأن جبلاً سقط من على عاتقه. زادت قبضة يده قوة وهو ممسك بيدي كأنما يريد أن يلصق الشرخ الذي حل بالصورة. كنت أنظر إلى وجه الرجل الوحيد الذي استحق كلمة بابا، وتجرد منها لتوه. كنت أسعى لأتبوأ مهربا في وجهه الذي لم أكن أعرف إلى أين كان سيقودني الصدق الذي كان موسوما في مقلتيه، وتلك المسحة الغريبة التي تجلت فوقهما. أي حقيقة تخفيها تلك العيون؟، ولماذا تحملت عبء مواجهتي بمفردك أعزلا، مرتبكا، مجردا من كل شيء حتى من أبوتك التي فقدتها بعدها...؟ رسمت أبعادًا شاقة من التعابير والأحاسيس المنهكة التي كانت أكبر من أن أفهمها. كيف يمكن لشخص أن يزاوج بين هويتين، وهل يمكن هذا؟

ألتفت بجثتي المتصلبة بين اعتراف مبهم وحيرةٍ خانِقة، ما زالت تكفكف دمعها الحارق بين كفيها. هوت بي إلى حُضنِها كأنما تريد أن تدخلني فيه، أن تبعدني عن شيء أقسى من تجربتي البسيطة في الحياة. كانت دفتاها دافئتين إلى حد كبير كأنهما تحتضنان الشمس. تتلمس جديلتيّ كأنها تتحسَسهما لأول مرة، لآخر مرة! كأنها الرسالة الأخيرة! آخر كذبة! كانت تمهد لشيء عظيم وسط

دموع ظننت أنها ستشفع لها لم تزدني إلا توترًا وحاجة إلى الإجابة. أتحسس رقبتي التي كانت أرضا صالحة للحرائق التي سدتها في محاولة عجز بين للتنفس بشكل عادي، أزدرد ريقي في محاولة فاشلة لإخراج الكلمات من حلقي لتعلن نزول دمعة حارقة فوق خدي.

أمّي، من أنا؟ ما هذا اللقب الذي حاكى اسمي فجأة؟ من هو إسماعيل كامل؟ ماذا يقصد أبي؟...

ازدادت كثافة السحب الرصاصية التي كانت شاهدة على ما يحدث بحياد رمادية باهتة لأحد لا يعرف كيف يتخذ قراره أبدًا، ولم يستطع أن يحدد أي الاتجاهين يسلك ليجنب قلبه أقل ضرر، أيكون سعيدا لو اختار الأبيض؟ تراه لن يحن إلى الأسود الذي فيه؟ أم أنه سيكون أسعد وأفضل مع نقيضه؟ لا يدري، ولذلك جمع الاثنين معًا وتشكل هو. هكذا أنا أشبهه. رمادية. ربما كان من بين الألوان التي تمثلني حينها إلا أنني بعد كل هذا علمت أنه أخفق وخابت محاولاته في الاختيار، لأن كلا اللونين لون حداد مقيت. أبى أن يعيش في شجن وأسى فاستحدث لونًا يُمثِلُه هو هربًا من الحزن. ألهذا كان الفرق كبيرًا بين صورنا وشبهنا؟ أينتقل هذا الشبه أيضا إلى ألقابنا؟ ألهذه الدرجة تقرر أن نعيش في تناقض رهيب بين مشاعرنا وصفاتنا على أرض الواقع، وبين ما تحمله لنا الأيام من وقائع؟.

الكذب يتعدى حدود المعقول أحيانا، ولكن الكذب يبقى كذبا، أليس كذلك؟ حتى وإن كان معقولا لا يمكن اعتباره أبدا فضيلة.

كانت كلماتها متراصة بخجل أوهن كلمات غاصت في باطن روحي. اعتراها الأسى والأنين تكابر عيناها وتمنعها من الانهمار أمامي. تمسحهما بقوة كأنها تريد أن تمسح عنها هذه الصورة، تتيقن أنها تصارع كابوسًا قبيحا تستعجل استيقاظها منه... علمت أن الأمر ليس بخير، فها هي الآن تتجرد وتتعرى من أمومتها أمامي، تنزع عني صدرها الحنون، وتبعد عني لمستها الدافئة لتتركني معدمة الوجود. أنفاسها متسارعة محترقة تلفح وجهي. أردفت قائلة وهي تحاول تثبيت عينيها علي:

أنا لست أمك، ولكنني كذلك... لم تولدي من رحمي ولكنك ولدت من هنا (في إشارة إلى قلبها).

دوّى صدى كلماتها داخلي. تسارعت على إثرها نبضات قلبي كأنها أجراس حروب دُقت وأضرمت داخلي، حتى أنني أحسّني أصبحت كلي دماء، كمن كان يدفعني إلى الجنون بإصرار وعزم. لم أتوانَ أبدا في أن أحفر مكانا لي في صدرها. ارتميت في حضنها أتحسسها. أتشبث بها في مناجاة مبتورة مني أن لا تتخلى عني، أن لا تتنازل عني، أن العالم بالنسبة لي صورة شبيهة بها. كأنني بلا وطن، رحل الجميع، وبقيت لوحدي كأول بشري ضال شارد متشبع بالوحدة. احتجبت لدي الرغبة في إدراك الحقيقة التي كانت أقسى من وجودي. لا بهاء في الخريف الذي أوى باكرًا، ولكن الأمر أسوأ حينما لا يغادرك أبدًا... أنت حبيسٌ في عمر صغير، فاقدٌ لكل شيء، بعض الحقائق يلغي حياتكَ، وبعضها الآخر يبعث فيها الحياة. الآن نحن غرباء جدًا، سنبدأ في التعرف على هوياتنا من جديد، نفصل شبح الأكاذيب عن أوهام الواقع.

- لماذا؟

رمقتني باستغراب. كانت أول كلمة بعد رُهابِ الصمتِ الموجعِ تلك الأمسية، ذلك الجمود الذي تملك أطرافي...

-ماذا تقصدين؟

تتصيدني الأسئلة المفزعة في كل ثنايا الذاكرة المُقْفِرة التي أعرضت عن تقبل الحقيقة الهشة.

- لماذا تخلّوا عني؟ لماذا فشل الجميع في الاحتفاظ بي؟ ألهذه الدرجة تسبب وجودي في الأذى؟ لماذا لم تخبريني...؟

حركت شفتيها اللتين كبلهما الصمت بأغلال الألم في محاولة يائسة منها لتبرير الموقف بسذاجةٍ يتقبلها الطفل الغرير. تتحسس وجنتي في محاولة لإسكات الوجع الذي يتلبسُني. أتظنين أنه بعد كل هذا ما يزال للبراءةِ شيء في جسدي؟ لقد كبرت دفعة واحدة. أسوأ ما قد يصيب المرء أن يسكنه الكبر قبل أوانه.

ما رأيك الآن أن تعزيني في أمي التي ماتت منذ زمن ولا أعرف عن وجودها شيئا؟، سوى أن غيابها يدمي قلبي الآن، أم أنَ الأمر أجدى وأفضل لو تلقيت التعازي دفعة واحدة. أظنني حقا أحتاج إلى العزاء الآن، لقد فقدت الجميع وفقدتني أيضا...

كيف ترغبين في أن أناديك بعد الآن، عمتي أم أمي البديلة؟!

أحيانا حتى هوياتنا تكون مغالطة، وأكثر الأشياء التي نؤمن بها غير حقيقية، كإيماني بالغول ورجل الهدايا بابا نوال، وبكوني أنا الوحيدة التي ترى بأن الغيوم تتحرك حتى وصلت إلى ملاك كامل.

اجتازني الوقت بصعوبة بين ركاكة وهشاشة المشاعر التي لم تفارقني منذ ذلك اليوم، كانت ورقة وفاة مسبقة، لعبة أنا داخلها

ولا أدري، اهتزت ثقتي منذ ذلك الوقت، ولم تعد خطواتي واثقة مثل قبل. بدأت أفهم معنى أن تكون حبيسَ جسدٍ غير مرغوب به، حبيس أفكار وأحداث تشعرك أنك ستنكشف عبر بوادر سؤال عابر، ستنهار. ستتقيأ الوجع الذي داخلك دفعة واحدة لأن لا أحد يشبهك ولا تشبه أحدا غيرك. الأسئلة تتعب قريحتك الملتهبة، والفشل في معرفة السبب الذي قادك إلى أن تصير غرضًا مهملا بلا قيمة، أن تضطر للنظر كل يوم في عيون أشخاص قد منوا عليك بأنك موجود على طاولة طعامهم، كنت أسأل نفسي مرارا: ماذا كان حل بي بعد تخلي والدي عني؟...

بعد سنتين تمكنتُ من فتحِ بوابة الجحيم الذاتي على نفسي. قررت أن أرمي بي وسط تجربة فاشلة من الأساس. في سن العاشرة حاولت القتال عارية الوفاض بما أمتلكه من معلومات يتيمة ورسومات في ذاكرة الوجع الدفين عني وعن أبي، أن أصحح ربما اتجاه حياتي، العودة لطريقي المقطوع الأول، وأمي كوثر أو بالأحرى شبيهة أمي، حتى أخبرتني أنها مجرد عمة نسب لها دور أن تكون أُمًا لفتاة توفيت والدتها يوم ولدنا، ومات أبي أيضًا معها، ظاهرًا عذرًا قلت وُلِدنا، نعم تبين أن لدي أختا ثانية: توأمي الشقيق أحلام من بين حقائقي التي ظهرت فجأة، سأذهب إلى الريف لزيارة "أظن" موطني...!

تظل هاربا من ذاتك، من الأشخاص المحيطين بك، دائما ما تظهر لك علامة تعجب كبيرة وراء الأشخاص الذين تواجههم. باتت لدي ركاكة في الإيمان بالمحيطين بي، أكثر شيء يرعب الناس هو فقدانهم للأمان، وهذا ما تأكدت منه، خائفة من كل شيء قبل أن

أكتشفه، حتى قبل أن يسمح لي بالخوض في غمار هذا العالم، كان الأمر سيبدو أكثر رحمة لو أنني علمت بأمر استغناء أبي عني، ووفاة أمي في وقت أبكر من هذا، كان سيكون مثل الموت الرحيم ربما!، ولكن هذا لم يحدث، كما أنني لا أفهم سبب إخفاء أمي هذه الحقيقة عني، كان الأمر بالنسبة لي كأنك تشاهد فلما للبالغين لا تفهم منه شيئا، مما يدفعك إلى طرح العديد من الأسئلة حوله، ولكن أسئلتي كانت تبقى في غالبية الأحيان منكسة الرأس كعلامة استفهامها دون الوصول إلى إجابة مقنعة.

في منتصف شهر تموز قررت أمي أن تصالح حاضري مع ماضيه، شعور متضخم في أوردتي، سفرٌ بكرٌ. أول مسافة بعيدة تطوى تحت ناظريَّ. وجه تأكلهُ الصُفرة المربكَة، أهيَف باهت، وابتسامة كانت كفيلة لتعلن من خلالها بلاغ موت أحدهم، يهيمِن علي الشعور بالضياع لضخامة المساحات المعلقة بين ماضٍ مبهم وواقع مفرغ، يلتهمه الماضي بنهم شديد ليتركني عارية من أحلامي ساحقة البعد. كانت الابتسامات الميتة والنظرات الباردة تملأ القطار، توقف الزمن، تحجرت المشاعر، السير إلى المقصلة... منتصف النهار، الجو حار نوعا ما. درجات الحرارة فيه بين الثلاثين والحادية والثلاثين، حمى طبيعية، يمكنك شم رائحة التراب في أنفك، المكان شبه خالٍ من السكان، كما أن المارة هنا يلاحقوننا بنظراتهم المبهمة المتفحصة. هناك في تلك الطرقات غير المعبدة، البيوت القرميدية الهشة المنتشرة فوق التلال شبه الصحراوية المتباعدة عن بعضها كأن خصوصيات البشر هنا تستلزم شق هذا الفراغ الشاسع بين بيوتها الحجرية، تهرب من

الزمن، تَخْرُج من إطار المدن لتُشكِل تمازُج الحاجة والرفاه، تعاني حر آب الحارق، وبرد كانون الثاني. تسندها بعض شجيراتِ الصبارِ البرية والنباتات الصحراوية الجافة التي تقضمها القطعان الهزيلة في أعالي الجبال، حافظت بطريقة ما على بربريتها التي لم يتدخل الإنسان فيها إلا بالشيء القليل. كانت كُتل الهواء ثقيلة كأنني أبتلع هواءً مركزًا من الألم... لا أعرف أحدا، كما أنني لا أعرفني. أود أن أستكشفني، وها أنا ذي أقبل الطريق بخطى باردة ميتة ترجعني إلى الخلف، أخيرًا تكلمت أمي كوثر ببحةٍ حادةٍ تخنِقُ صوتها في حلقها كأنها تزيل أحجارًا عالقة فيه وتقتله في لحظة استسلام.

سنذهب لبيت إسماعيل أولا.

كل رجال القرية في عيني إسماعيل حتى أولئك الذين تركناهم خلفنا في العاصمة. في القطار، كنت أتساءل يوميا كيف يبدو إسماعيل؟ هل تحاكي ملامحي ملامحه؟ ملامحي التي تشربت الغيظَ والسخَط عليه وعلينا معًا. طول هذه المُدة كنت أشبه بالورقة المسودة المرمية في قمامة الزمن، وهكذا بقينا طول الدهر. توقفت أمي أمام أحد البيوت التي لا تختلف عن سابقاتها. داهمنا قدوم رجلين من الناحية الأخرى التي كانت مليئة بالحقول، يحملان أكياسا رثة من الحلفة. توقفت عمتي عن طرق الباب الخشبي الهرم المتباعدة أخشابه. حدقت بتمعن إلى الرجلين الذين كانا مارين بالقرب منا. علمت من تلك النظرة أنها قد تعرفت إليهما. تقدم أحدهما ورفع الآخر يده مودعًا هاتفا باسمه.

-لعشية إسماعيل!

أطالعه بنظرة معمقة، الرجُل الذي نعته بإسماعيل، لاحقتني دقات قلبي كالمعول مهرولة نحوه حتى أنني خشيت أنه بات يتلصص علي، دنا منا بوجهه ذي الملامح الباردة موحد التعابير يسلم على أمي ببرود قاتل متمتما:

- واش فكرك فينا، شكون هاذي اللي معاك بنتك؟!

- وبنتك

نظر نحوي والدهشة تغازل ناظريه، شزرها بنظرة قاسية ورجع بعض الخطوات إلى الوراء في ذهول، كأنما يعلمها أنها نقضت وعدًا أو ميثاقًا بينهُما. لقاءٌ حاد جمع فيه كل جفاء السنوات العشر الفارطة، أما كان يجب علينا اجتثاث عناق طويل يذيب برود السنوات الماضية؟ قبلة دافئة، ترحيب أقل مرارة من هذا؟! أكان يجب علي أن أتجلد بكل هذه القوة الآن، أن لا أبكي؟ أن أحتفظ بدموعي لنفسي، فقط أطالعه بأسى لأروي قريحتي الملتهبة والمتلهفة لرؤيته، أن أقتل القليل الذي منك فيَّ.

ولجنا إلى داخل البيت، كان يقودنا إلى العتمة، لا شيء غير العتمة. لقاء بارد تهربت فيه عيناه مني قدر الإمكان، بل كان مُصِرًا على أن يخفي عينيه اللوزيتين بقوسي حاجبيه العريضين اللذين تتقاذف فوقهما سنابل شعيراته من أن تبصرني. كان ضخم الجثة قاسي الهيئة، باردًا، لا بل متحجرا، تشربت بشرته بعضا من صفرة الصدمة... ألهذه الدرجة كان وجودنا عائقا أمامه، لذلك سعى للتخلص منا بأسرع الطرق؟! هه ! كان الأمر أشبه بمرور كلب أمامك فتمد يدك لتمسح عليه، ولم يتعدّ الأمر ذلك. لم يكلف نفسه حتى القيام بواجبات الأب الإنسانية. أظنه اقتنع بأننا لا

نعنيه، كان وجودنا كعدمه. هو مهتم كثيرا بزوجته الثانية زينب التي رُزِق ببنتين منها، كانت تبدو غريبة الطباع حادة المزاج، تترقبنا بضيق كان جليا على وجهها، حيث لم تختلف ردة فعل إسماعيل كثيرا، الذي لم يولِ الأمر أهمية، مجرد زوار غير مرغوب فيهم يتمنى رحيلهم. لم نتكلم أبدًا. عقدت لساني الصدمة حتى أنه لم يسألني عن حالي. لم يمضِ معنا ثلث الساعة وتحجج بالخروج. ها أنا ذي أترصد كتفيه العريضتين اللتين تغربان من باب الدار. أما أختاي الصغيرتان اللتان كانتا تتمتعان بجمال ساحر إن كان مسموحا لي اعتبارهما كذلك، فأنا أكتشف الكل من أول نظرة من أول ابتسامة، ومن أكبر خيبة أمل أقتنيها بمشاعري... كانتا تشبهان أزهار غلاديلاَس المبهجة ذات الشعر الذهبي المجعد، والبشرة القمحية، تترامى عليها نقاط النمش كأن الملائكة قد خطت بعض الخطوات على وجنتيهما. أحببت مداعبتهما والحديث إليهما بلغتهما الطفولية المتكسرة. في بوادر تعارفنا الأول واضعة فنجان القهوة فوق الصينية لتطبطب فوق كتفي، في إشارة منها للمغادرة، مستندة على ما بقي لديها من قوة، محاولة تطبيب الشرخ الذي حل بقلبي، تضمني بقوة إليها كأنها تعتذر لي عن كل ما حدث في محاولة لرسم ابتسامة فاشلة أمحو بها رماد الحريق الذي لامس روحي.

كان الشبه بيننا كبيرا. لم يكن الأمر صعبا حتى عرفتها، لولا أنها كانت بدينة قليلا مقارنة بي، عادية بطريقة مختلفة، بسيطة ربما. أنا حقا لم أقابل شخصا بهذه التركيبة من قبل. يشع من عينيها الخضراوين بريق ساحر، لها شعر طويل أشقر تسدله على كتفيها

في ضفيرتين طويلتين، هادئة إلى حد كبير إذا لم أقل أنها كانت تختبئ وراء ظِلها في احتشام. أختبر شعور الأخوة بعدما فشلت فشلا ذريعًا في قول مرحبا أبي لرجل كان أول من اكتشف الجدار العازل بين القلوب، لا أدري لمَ سبقتني دموعي التي كانت تئن من الوجع تحت أجفاني رثاءً لأبي، وترحيبا بأختي. غريب علمها بوجودي إلا أن علمها هذا لم يشفع لها في التواصل معي كما فعل الكل قبلها. تفاصيل ملابسها لم تكن منسقة، رثة حائل لونها... نشأت في الريف الذي لم يرحم وحدتها عند خالتي نورة الفتاة الوحيدة بين ثلاثة أولاد، أنيسة لها ظاهرا لكن حقيقتها جارية ترك الزمن عليها أثار العبودية المنسية في عمر طفولي لذلك البيت تخدم أهله، وتسهر على راحتهم، وتلبية كل احتياجاتهم لغاية واحدة وهي تزويجها لابنها البكر كريم، كمقابل لولائها تناله ليس كزوج وإنما كجزاء. لم ترتد المدرسة قبلا، بالرغم من أنني شجعتها على الالتحاق بها إلا أن اعتقاداتها وتصوراتها كانت كفيلة لتجعلها تحكم إغلاق السجن الوهمي الذي بنته حولها عاهات وتقاليد هذا المجتمع. فبالرغم من تناسخ أشكالنا إلا أن أفكارنا، ومعتقداتنا كانت مختلفة.

2

مرت أربع سنوات على أول لقاء مع ملاك الحقيقة. الوقت كفيل بتغيير الأشخاص، ولكنه طوال هاته السنوات الأربع التي مرت لم يتغير ظاهريا شيء، كأن ما حدث كان كابوسًا قابعًا تحت الوسادة يزورني ليلا لينغص علي أحلامي الوردية ويرافقني في نهاري قابعا تحت أوردة حزني، هو لم يتصل ولم يسأل عني حتى كان لقاؤنا الأول تمريرًا لرسالة عدم الاعتراف. حاولت عمتي التواصل معهم في البداية رغبة في تخفيف سواد الصورة التي يحاول كل من حولي التركيز عليها أكثر فأكثر ولكن العتمة غطت على كل شيء.

زواج مدبر. لا يحق لك حتى الظفر بقرار واحد لصالحك، في عمر لم يتخط عتباته الأربعة عشر خريفا تم ذلك الزواج، وكريم الذي لم يتخط عتبة الثامنة عشرة سنة بعد. تحولت فيه من مراهقة إلى زوجة بين عشية وضُحاها، زواج طفولي لم يلامسه الحب في زمن ليس المهم فيه أن تحب أنت بل يكفي فيه رغبة العجائز هنا، هي من تحب، وهي من ترى مدى صلاحية الفتاة في الحب، وتعزل من تشاء عنه، للحب مفهوم واحد هنا هو أن تحب مصالحك فوق البشر. اعتقاداتها البريئة الطفولية التي تختبىء وراء حمرة خديها الفاتنة. حلم اعتادت خالتي أن تسرده على مسامعها يوميًّا حتى تعايشت معه، وصار هدفًا سعت إلى تحقيقه باذلةً كل ما تملك. هي لا تملك شيئًا سوى نفسها التي منحتها له أيضًا ولكن الفواتير ندفع ثمنها في النهاية.

كبُرتُ كثيرًا على آخر مرة خطت فيها خُطواتي هذه المنطقة، تماما كما تضخمت مساحة الوجع داخلي. حرارة اللقاء الأول تنعش ذاكرتنا الميتة المنسية المترامي عليها غبار السنين، مرت أربعُ سنواتٍ بذاكرة اللقاء الأول. على كل لقد افترس داخلي منذ ذاكرة الوجع الأولى. الانطباع الأول شاق جدا، بالكاد تغير شيء حتى وقع بصري على أحلام التي أوقعت كل أحلامي أرضًا. هذه المرة ألهذه الدرجة تفترسنا السنين! بالرغم من أننا نمنحها كل ما نملك، لقد نحتتك الحياة على عتبات الشقاء تلتحفين عباءتك وتلبسين حذاء الشقاء يوميا، تغلفين ابتسامتك الهشة التي تقع من أول سؤال كيف حالك؟ لتقع حارقة فوق نيران الألم. أعدت القهوة في عجالة، كانت أقل حركة وحيوية عن آخر لقاء بيننا تنقب عن صدر يربت عليها، وينفض عنها بقايا رماد احتراق حلم جميل انكسر مع ليلتها الأولى. لا عجب أنني أرى فيك أمي. أكثر شرودا... لقد اشتغل دماغك أخيرا يا عزيزتي بعدما انطفأ قلبك إلى الأبد. لم يستوصوا بقلبك خيرا يا فاتنتي، صوت رقيق حاد يداهم عزاءنا لأنفسنا ليوجه لكمة أخرى تستهدفني هذه المرة أنا.

- ملاك.. كيف هي أحوالك في تلك المدينة البعيدة؟ أما تزالين تمارسين لعبة الركض مع الغرباء بحجة التعلم؟!

كانت محاولتها للسؤال عن حالي مبتذلة كافية لتفهمني رأيها في الموضوع، كيف يمكنها أن تمنح نفسها هذه المساحة الواسعة لتدخل في حياتي من ثاني لقاء بدأ يرسم معالمه للتو؟! تردف قائلة :

. لابأس. أنا سأصلح ما أفسده دلال عمتك، وطيش المدينة وتهورها. انظري إلى أحلام أختك قابعة بين أهلها وذويها لا تشتكي

من شيء، كما أنها استطاعت أن تتزوج وتكون مسؤولة، وعن قريب ستحمل لنا بشارة حملها، وتنجب لنا صبيا يشبه أباه أو جده، ولكن لا تقلقي فخالتك هنا هي من تتولى إرشادك إلى الصواب، فأنت وصية المرحومة الغالية، سأتولى تزويجك من ابن الجارة حفيظة فهو رجل والرجل لا يعيبه شيء...

ثرثرتها تصيبني بالذهول، لا أتحمل الكلمات التي تتفوه بها. كيف يمكنها أن تتدخل في خصوصياتي بهذا الشكل المتمادي؟ لا وتقول وصية أختها. أين كانت سابقا إذن؟ ما كانت تولي أهمية لوصية أختها من الأساس، فلا أعتقد أنها تذكر حتى أن لها أختا! أجيبها محاولة إغلاق الموضوع قائلة:

-لا بأس يا خالتي فأنت قد اعتنيت بأحلام، وها هي الآن تحولت من ابنتك إلى كنتك، وبهذا يصير لدينا بدل أم واحدة اثنتان تحباننا وتخافان على مصلحتينا... في تأكيد منها أنها لا تريد غير مصلحتي فلا يوجد خير في امرأة تبقى مترامية بين أزقة الشوارع سوى بيت زوجها، رجل يتحمل عنها كل أعباء الحياة الدنيا وتبقى هي كالجوهرة الثمينة في بيت زوجها، فهذه هي الحقيقة ولا يمكن لأحد أن ينكرها...

تقاطع عمتي حديثها محاولة منعها من التدخل في حياتي وأن تتولى رعاية شؤونها وشؤون أسرتها أفضل لها. في ذهول مما سمعته أجيبها بحنق وتوتر شديدين:

-ماذا؟! عن أي جوهرة تتحدثين أنت؟ بهذا الشكل تظلمين الجواهر كثيرًا، أساسا أنا لا أرى سوى قطعة من الحديد الصدئ قد أكل عليه الدهر وشرب. أنت لست كجوهرة وزوجك لا يتحمل

مسؤولية نفسه حتى يتفرغ لدلالك، دعيه أولا يعاملك كامرأة ويكف عن معاملتك كخادمة، بعدها حدثيني عن أحلامك الوردية. انظري إلى حياتك البائسة، أهذه هي الحياة الرائعة التي تدعينني إليها؟ أم حياة أمي البائسة؟ ناهيك عن كل الأعمال الأخرى التي كانت تقوم بها، وهو ماذا كان يفعل وقتها؟ أجيب: يا خالتي أين كان عندما كانت أمي تلد؟! نعم لا يمكنك الإجابة...

ها أنا ذي أسكب كل غضبي عليها بقدر ما كان المكان واسعًا، إلا أنني كنت أختنق بشدة، تخنقني كلماتها... تهرول قدماي نحو الباب كمن يحاول إطباق جدران الغرفة على صدري في ذهول مما سمِعتهُ، متجمدة في مكانها، زاد وجهها صفرة على المعتاد وزادت ملامحها حدة وهي ترمقني بغضب، إلا أنها لم تضيّع الفُرصَة أبدًا. أفاقت من جمودها صارخة في وجوهنا التي كانت هائمة خارجة من البيت:

-أهذا ما تعلمته في تلك المدينة؟ قلة الأدب وانعدام التربية؟ يبدو أن لالة كوثر تركتك على راحتك كثيرا حتى تواقحت. سأطلب من والدك أن يعيدك إلى الريف وسأتولى إعادة تربيتك من جديد، فقد انحرفت عن الطريق الذي يجب أن تسيري عليه.

حديثها مستفز للغاية، لا تأبى إلا وأن تحشر أنفها الرطب في خصوصيات من حولها. أساسًا من عينها خطابة تزوج من تشاء وتطلق من تشاء؟. يتردد على سمعي صوت أمي مناديًا عليَّ. أسند جسدي فوق صخرة أنتظرها. لم أكن أعرف أن لقائي بها سيكون بذلك السوء، جالست أمي كوثر جثتي التي تحوم فوقها غربان الغضب قائلة:

لا تزعجي نفسك يا حلوتي فأنت لم تري شيئًا بعد، فلا حديث لأهل هذه القرية سوى عن الزواج والطلاق، حصروا أنفسهم في قوقعة فارغة كأنهم يتسابقون من أجل الحفاظ على نسلهم، أهي نهاية العالم أم ماذا؟! كأن المرأة خلقت لإشباع رغبات الرجل لا غير. هي في نظر الجميع الجارية المطيعة العاملة في الإسطبل والحقل، آلة لإنجاب الأطفال الذكور فقط، وإذا أنجبت أنثى حل عليها سخط المولى كله، وناهيك عن ذلك الزوج الذي لا يكترث لوجودها أكثر من رغباته وشهواته، فالأفكار التي زرعت في دماغه أكثر من آلاف الهكتارات التي تحصد في هذه القرية.

أمسية باهتة كبهتان تعابير إسماعيل هاته الأمسية، ليل طويل تأبنه الصراصير بصوتها الذي يشبه لحن الموت. في طرف الغرفة هناك تتعالى ضحكات صغيرة الحجم في مداعبته لبناته وهناك عمتي تحاول جاهدة ربط خيوط الحديث الذي بتره من أول كلمة. ردود باردة. يحيك شرخ المشهد بابتسامات ماكرة مليئة بالخبث من حين لآخر دون إقامة أي اعتبار لوجودنا كأنه يخبرها بصمته ذاك أن الأمر لا يعنيه كما لم يكن يعنيه قبلا. في زاوية الغرفة تلك أطالعه، أفتش في ملامحه عن مكان لي ولأختي ولكنني عبثًا كنت أحاول. هو يمتلك قلبا ومشاعر لديه الكثير منها ليُعِيد طوفان نوح ولكننا كنا أصغر من أن يلتفت لنا ويعيد برمجتنا في حياته بناته البكر... زيجته الأولى... فشله الأول... كمن يريد الهرب والتملص من ماضيه، ونجح حتى أنني لم أنجح طول هذه السنوات الأربع من سرقة كلمة ابنتي من شفتيه. ضيق كبير يعشش في صدري. أتنفس من خرم إبرة في باحة البيت. أبحث لي عن نصيب من الهواء لأطفئ

به الرغبة في الاشتعال، والتي كانت تراودني. لم أستطع مقاومة رغبتي في البكاء الذي وقع علي كوقع المطر في صحراء جافة. أزاوج خسارتي بلقاء أختي واحتراق الأمل الذي كان معلقا بين عيوني كونه سيتغير، سيتقبلنا على الأقل، ولكن...

ينسج الشفق خيوطه ليرمم ما حلّ بي، وها هو قلبِي يُرمَى في سلة مهملات البرود والجفاء الذي عانقته. يعود في نفس المقطورة التي جاء فيها. لقد كان كريما معي جدا هاته المرة حد السخاء مؤمنة حد الورع بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان البتة، لست جزءًا منه ولم أكن يوما... هذا ليس عالمي، لطالما كانت أسئلتي ثقيلة على سمع أمي لتتهرب منها كل هذه السنون بدون اقتلاع أي إجابة منها تفسر لي قسوة إسماعيل غير المبررة معنا. كيف يمكن له أن يحمل هذه القسوة؟، عيونه التي تخشى أن تجتمع بعيوننا فنحظى بشق نظرة عابرة تُقرئك الجفاء. لا شيء يفسر جفاء عواطفه معنا حتى أخبرتني بحقيقة علاقة والدنا البيولوجي وزواجه بأمي.

على طاولات المجون والخمور حجز إسماعيل لنفسه مكانًا شاغرًا يفني فيه سنونه الواحدة والعشرين. زير النساء من النوع الرخيص عاشق للقمار، حفر لنفسه عالما وسط غياهب المخامر والليالي، لم يكن يفلح إلا في مرافقة العاهراتِ وشُرب الخمور حتى الثمالة. أخذ من صدور النساء مرقدًا ومن المخامر حياة وعالما يسكنه. راميًا الباع الحسن الذي تتسم به عائلته في المنطقة تحت قدميه، تمر عليه ألسن أهل القرية كلما أرادو استذكار عقوق أحدهم الابن البكر الفاشل في تحمل مسؤولية نفسه، العاجز في جعل نفسه أقل سوءًا حاملًا فوق أكتافه غضب وغيظ والده

الشديد، والمرات العديدة التي يطرد فيها من البيت، وتضرع أمه وابتهالها بالصلاح والهداية رغم الغصة التي حفرها في قلبها. كان في الجانب الآخر من ظلاميته المعهودة يراقص فتاة عُهرٍ طازجة تسللت إلى حياته واقتحمتها كالوباء، حافية ترقصُ على بقايا حياء وتقاليد مجتمع محافظ.

جاء في اليوم الذي انتظرته عائلته فيه منذ زمن، منذ أن بشروا بمولود ذكر في العائلة، اعتصر فيه كل المرارة التي كان مخبأ لها في جعبته ليبوح بمكنون صدره وإعلانه الزواج من تلك البغي هو فقط كان مثالا لعقوقه المعلن لأبويه، كان التدخل الأخير لجدتي التي اعتبرت الأمر نزوة عابرة لا غير، نزوةٌ وستتطَهر روح ابنها وترجع له صوابه. تفكيرها ضيقٌ للغاية لذلك سعت لتزويجه من فتاة جميلة تُغيره وتُصلِحُ ما فيه، فما أفسدته امرأة تصلحه امرأة أخرى... هذه الفتاة كانت أمي ملاك، ظنوها ملاكهُ التي ستنتشله من القذارة التي يغوص فيها ولكنهم نسوا أنه شيطان، والشيطان نفر من الفردوس وبالتالي لا مجال لأن تسكن أرواحهم أو أن يهتدوا إلى بعض الحل الوحيد لإخماد ثورة والده التي أحرقته، وخضوعه للأمر كان مجرد عملية مباغتةٍ ليتسنى له فعل ما يشتهيه ويبتغيه. إن الشخص لا تغيره غير التي يبحثُ عنها، سيدتهُ الأولى لم تعوضها امرأة أخرى، لقد أخطأوا كثيرًا فهو ما يزال على حاله، يتيمة تستقي مر حالها مع حالها، كانت الأيام تحسن في استهلاكها وقضم كل جميلٍ فيها، قُربانا وضَعوهُ أمام شيطانٍ مفرغ من الرحمةِ والأحاسيس...

الألم أشدُ من الموت، الموتُ راحةٌ للجَسد والرُوح، والعذابُ نارٌ تُوقدُ في النفس ولا تنطفىء أبدًا. هكذا باتَ الأمرُ، بل ولم يتغير إلا حالُ أمي الذي يزدادُ سوءًا يوما بعد الآخر، باتَت تهربُ من شقاءِ روحِهَا إلى شقاءِ جَسدِها تنتقِمُ من ألمِهَا بالعمل لتنسى السكير اللعوب، لتنسى حقيقةَ كونِها يتيمةً استُغِلت بأبشعِ الطُرق، آذوهَا فترامتْ روحُهَا وسطَ غُرفتِها التي مُذ أولُ ليلةٍ لهُمَا باتَتْ خاليةً من روحه، لم يكُن لها يومًا ولن يكون... فضَل النوْم على صُدورِ العاهرات بدلاً من النومِ على سريرهِ بجوار زوجتهِ، أخذَ من الخُمورِ ترياقًا لروحِه، أما هي فقد باتَتْ دُموعُها ضَماداتٍ لِجراحِهَا المتعفِنة. أرادت أن ترمي بألمِها إلى الخارجِ إلى أن رمتهُ الأقدارُ في رحمِها، ولا يوجد أحد لتفرح معه، لا يوجد أحد لتعانق النجوم فرحا معه بهذا الخبر. هي الآن تتلقى خبرَ حملِها ولا يُوجدُ أحدٌ لتَفْرح معه، لا يوجدُ أحدٌ تعانقُ النُجومَ فرحًا معهُ بهذا الخبر، لا أحد حتى أهلهُ بعد أن زوجوهُ وبدأتْ تظهرُ علاماتُ فشلِ فعلتِهمْ خرجوا من الحربِ بدونِ ناقةٍ ولا جمل، فأرادوا أن يقاطعوه ليُحِس بمدى تقْصيره في حق زوجتِه وأهله، أما هو فإن رأتهُ في الأسبوعِ مرةً أو مرتين يكونُ قد أسْدى لها جميلًا. كان لا ينظُر في وجهِها ويُحدِثها دائمًا أن ترحل وتخرُجَ من حياته، حتى بعد سماعهِ بخبرِ حملِها لم يتغير في الأمر شيئ البتة، هو كان دائمًا ذلك الشخص الأنَاني الميؤوس منه لا تنتَظِر شيئا منه لأنه مُنشغلٌ بنفسِه. وبقيتْ هي تمحو أيامهَا السيئة بفرحِهَا بمولودِهَا، أما أهلهُ فقدْ انتقلَ أملُهمْ مِنها هي إلى المولودِ القادمْ الذي عسى أن يأتِي ويجْلبَ معهُ عقلَ والدهِ الذي نسيهُ في الظلام.

كان كانون الثاني يلتحفُ الموتَ بين أطرافِ الوجعِ الشائِكة في إحدى أيامهِ التي حضرت تأبينَ أُمي القاسِيةَ تحت وطأة المَخاض الذي داهمهَا في أيامِ وحدتِها تلك، تَمُدُ يدَها للمساعدة لخيالٍ تلمحُه من بعيدٍ مارا من هناك. "الراعي" ذاهبٌ للغابة من أجل جلبِ بعض الأخشاب ليتدفأ بها هو وعياله، قذفتهُ صُدفةُ مرورهِ من هناك ليسارعَ لإبلاغِ أهلِ زوجِها الذين تلقوا خبرَ ولادتها من شخص غريب.

لا يوجدُ أقسى من شعورِ الوحدة، أنت لست وحيدًا في الحقيقة، هناك أشخاصٌ يعتبرونَ أقاربك وذويك، تجدُ نفسكَ تُداسُ وأنت تحمِلُ في قلبِك الكثير من الحُب، ما يزال قلبك طاهرًا فيُكسرُ بحيثُ لا يلتئمُ مرةً ثانية.

أخبرتني عمتي أن أمي قد ولدَت قبل موعدها بأسبوع أو أنها لم تحسن العدَّ لذا لم يكن معهَا أحدٌ في البيت. أولُ مرةٍ تُجرِبُ أوجاع الحبلِ والولادة، ولادة صعبة، لم تستطع القابلةُ مساعدتها... كانت صغيرة يائسةً أتعلم ما يعني هذا؟ أن تجتمعَ هاتان الصِفتان فيك: الضُعف واليأسْ؟ أنت الآن على شفير الهاوية، لا تُريدُ الذهاب ولكنك تخافُ العودة، تخافُ أن تتألمَ أكثر، لأنها لم تحظ بأي أملٍ تطلبُ بهِ البقاءَ. لقد جاءَت غريبةً ورحلت غريبة، لم يكن لها مكانٌ في هذه العائلة البتة. هذا ما عرفتهُ لاحقًا. نَحنُ حتى الآن لم ينشأ لنا مكانٌ في تِلكَ العائلة.

ماتت بمجردِ وضعنَا، هي حتى لم تلمسنَا، لم تشُم رائحتَنا، لم تضُمنَا إليها، حتى أنها لم تقُل لنَا مرحبًا بكمَا في هذا العالم، جِئنا بدُونِ ترحيبٍ ورحلتْ بِدونِ وداع فقط أغمضَت عينيها الدامعتين ورحلتْ بدونِ رجعة، تُوفيت وتركتنَا لوحدِنا ذهبتْ وتخَلتْ عنا...

لم يكُن هنا، لم يفرَح بميلادِنا، حتى أنه لم يحزَن لوفاةِ زوجتِه، أقيمت مراسيمُ تشييعِ الجنازة وأرسلوا من يبحثُ عنهُ لإخبارهِ بموتِ زوجتهِ، ولكنهُم عبثًا كانوا يبحثُون عنه، حتى مخْمرتهُ، لم يعد يخفي جُثتهُ الضخمةَ فيها، لم يجدوه فأجلوا الدفن إلى بعد صلاة العصر عسى أن تنستِر أعراضُهم من الفضيِحة... مرت هاته السويعاتُ مرور المصْلِ في الأنبوب، بالطبع لم يأت حتى وهي ميتة مجبرةٌ على انتظارهِ يُعذِبها حتى بعد وفاتِها. قاموا بدفنِها ودبروا لي أنا وأختي مرضعةً، أخبرتني عمتي أنني كُنت سمينةً وقوية، ربما أبيت أن أستقي منها ضُعفها وصَمتها، أنا قُوتُها وثورتُها ورفضُها، أنا الثورةُ التي كانتْ في داخِلها، أسموني على اسمها، ملاك وأختي أحلام، ربما جمعت أحلام، أحلامَ أهلِنا التي لم تتحقق أبداً بخصوص أبي البيولوجي، أحلامُ أهلِه به وأن يتوقف عن طيشه وإهماله، وأحلامُ أمي في الحب، في السعادة، في زواجها... ولكنها كلها أحلامٌ فاشلةٌ ومحطمة مكسُورةٌ فوقَ رؤوسِهم تقطرُ على أنوفهم الخيبة والذُل، ظلموا ملاك عندما وضعوها في قبضة شيطانٍ أتلفَ براءتها وساقها إلى الجحيم بيديه، من المُجرم الحقيقي؟ أنتَ لأنك لا تعرف كيف تُحب؟ أم أهلك الذين أرادوا إسكاتَ شهواتِك الظلامية بتزويجك من فتاةٍ يكفي أن اسمها ملاك. انتهى العزاء ليعود الجميعُ إلى بيوتهم، لم يبق سوى أهلُ الدار، الكل أعينُهم

موجهةٌ صوبَ الباب متمسكةٌ بشبحِ دخولِه عسى أن يأتي صاحبُ العزاء، جاءَت غريبةً، حملها الغُرباء ودفنُوها.

فجرُ اليوم التالي، اختفت شمسه وتوارت خَلفَ الأُفق، أملُ مجيئِه ما يزَال مُعلقًا ولكِنهُ لم يأتِ بعد، ينتظِرونهُ كما انتظرتهُ هي عشرة أشهرٍ كاملة. لم يأتِ أبدًا، في وعيه كان إذا أتَى يكونُ السُكر قد نال منهُ فيرمي جُثتهُ في أي مكانٍ في البيت ما عدا غُرفة نومِهما، كانت أطهَر من أن يكون لها، عاشر مُختلف العاهراتِ إلا هي فهي أطهَر من أن يلمسَها نجِسٌ مِثلهُ.

تلاشَت تلك الغُيومِ التي كانت تحتضِنُ القرية في اليومِ الثالِث من وفاتِها. هيكلُهُ المهترئ يظهرُ من بعيدٍ. يخْطو خطواتٍ تُظهِرُ أنهُ غَيرُ مخمورٍ ولكِنهُ مُنتشٍ بشيءٍ آخر، ها هي ذي تتأبطُ ساعِدهُ وتلتفُ حولهُ كالحية في نظرةٍ تُوحي بالتحدي للجميع. كان سعيدًا على الأغلب نظرةُ مكرٍ باديةٍ على وجهِه... يدُق مَلامحهُ الخوفَ لمنظرِ الناسِ متحلقينَ حول بيتِه، دنا في استسلامٍ وأقدامُه تجُرهُ إلى الخلف، لا يعلمُ ما قد يواجهُه خَلف كل تِلك الوُجوهِ العابِسةِ، دنا قليلاً وإذ بالناسِ تُعزيه... يدخل البيت فيجدُ أهلهُ مُجتمعِين، رُبما ارتاح قليلًا لأنهُ وجدَ الكُل ورُبمَا هو لا يُبالي أو قد نسي أنهُ مُتزوج وهناك شخصٌ آخرٌ يجِبُ أن يقلقَ عليه.

يتلقى خبر وفاة زوجتِهِ من أُمِه بسخطٍ كبيرٍ، تُزيحُ مُقلتيها الدامِعَتين من على وجهِه البارِد لتظهر لها صُورةُ تِلك البغي خلفَهُ.

كانت الصدمةُ كافيةً لصَعقِ كل من في القاعة وكأنهُ مصرٌ على أن يكسِر عائِلتهُ، مُصرٌ أن يُهينَها، لا يكفيهِ إهمالهُ لزوجتِه ولم يحضر عزاءها، وإذ بهِ يحضر فتاة المخامِر إلى عُقرِ بيتِه. يَخرُج

جدي يعقوب عن صمتِه بلهجةٍ حادة يطرُدها من البيت، يُوقِفهُ قائلًا:

-أنت لا يُمكنُك طردُها...

-نعم، أنتَ محق، غادِر أنتَ معها، لا أُريدكَ أن تعوُدَ إلى هنا أبدًا.

-لقد تزوجتُها، إنها زوجتي الآن... يُعلِنُ ذلك في تحدٍ.

-ماذا تعني أنك تزوجتَها؟! ألا يكفي ما فعلتهُ حتى الآن؟ ما هذا العار الذي ألحقتهُ بنا لماذا تنتقمُ منا بهذِه الطريقة وعلى ماذا؟

كل من كان في الغرفة تَجمد مِن هول الصَدمة، أمهُ لم تَستطِع أن تتفوهَ بكلمةٍ ولا حتى أقاربِهُ، يُردف قائلًا بعدَ أن احتمتْ بهيكلِه الضخم مستمرًا في الدِفاع عن رغباتِه الظالِمة في وجه عائلتِه متناسيًا أنهُم أولى بالبِر والدفاع:

-هذا قراري وأنا لستُ نادمًا على شيء، لا يحقُ لك التَدخلُ في حياتيِ أبدًا، أنا لا أُشاوِرُك في الأمر.

يُوجِهُ أنظارهُ إلى أُمه ويرمي عليها بثِقل أسئلتِه قائلًا:

-كيف ماتت ومتى؟

تُجيبُه متحسرة مِما يقترِفُه وحِيدُها بصوتٍ يكادُ يسمعُه من في القاعة: الآن فقط تذكرتها؟!

يدفعُه جدي بِعصاهُ ويُوجِهُهُ نَحو غُرفةِ نومِهما واللعَنَاتُ تهطُل فوقَهُ من تكشيِرة حواجِبه التي سبغَها الشيبُ بِصوتِه القويّ كالعادة ولكِنهُ هذه المرة كان فيه شيءٌ من الانكسَار.

- هنا تُوفيت، تركتْ لكَ هاتين المَولودتين ولكِنكَ لا تسْتحِقهُمَا، خُذْ حُثالتَك وارحل من هُنا، ليسَ لديكَ مكانٌ بَيننا، أنا أتبرأُ مِنك.

ما أثقلها من كلماتٍ، يُديِر أكتافهُ العريضة ويخرُج من البيت والدُه تبرأ مِنهُ وهو يبرأُ من بناتِه، الفرقُ الوحِيدُ الموجُود بينَنا هُو أن جدِي تبرأَ منهُ لأنهُ ارتكَب أخطاءً لا تُغتفر، فكان موتُ أمي القَطرةَ التي أفَاضتِ الكأْسَ، بينما نحنُ نتبرأ من كِلتينَا بدونِ أي ذنب.

يخرُج لآخرِ مرةٍ يعلمُ أنهُ لن يعودَ إلى ملاك، ملاك التي أرادوا دومًا أن يربطوا أحلامهُم بها، رأوها نجاةً لهُ وهو لم يرهَا أبدًا، هو حتى لم يلمسنَا أو يحضُننا، فقط نظَر لنا كمن يُشاهد شيئًا لا يخُصه، لا يعنيه في شيء أدَارَ أكتافَهُ عنا وإلى اليوم لم يلتفت لنا... نحنُ الآن في أحضانٍ غريبة لا أحد يكترث، الكل ينوحُ على نفسِه، فقط كانت وفاةُ أمي وعدم حضُور أبي البيولوجي كافيةً لوضع النِقاط على الحُروف بالنسبة لهم، أما مسألةُ زواجِه فكانت تحديا معلنا من أبي لهم.

تركت تلك الحادثةُ انطباعًا خاصًا في نفس جدي تسببت في تدهوُرِ حالتِه يومًا بعد الآخر حتى أنهُ اعتزل الناس، وجد في بيتِه القبر المسبَق الذي يحتويه إلى أن رحلَ بجوار أمي. على الأقل هُناك من يُؤنِسُها في القبر فهو لم يُؤنسها في الحياة، لعلهُ يعوضُ تقصيرهُ في الحياة الأخرى، ولكن قبل وفاتِه أوصى علينا أنا وأختي أن لا يسمح لأبي البيولوجي بأخذنا معه حتى وإن أتى للبحث عنا وأراد أخذَنا معهُ ألا يسمحوا له بذلك. هذا كان أشبه بالسراب بالنسبة له ولنا على حدٍ سواء، فهو لم يطلُب أخذَنا معهُ بل وجد ضالتهُ مع زوجتهِ الجديدةَ، كان يُريدُ أن يعيشَ حياتَهُ المخملية، لقد تخلص من كل عائلتِه وحتى من زوجتِه وتخلى عن بناتِه من أجلِها

هي فقط. لقد كان معها رجلًا لم يستغنِ عنها البتة ولكنه لم يستطِع أن يكوُن معنى لا رجلًا ولا أبا، أليس معنى الرُجولة أن تَتصِف بصفاتِ الرجُل النبِيل مع الجميع وليسَ مع شخصٍ واحدٍ فقط؟

في كل مرةٍ كانوا يمدون يد العونِ له يريدُون عدم غِيابهِ عنهُم رغبةٌ منهم في انتشالهِ من ذلك العالم القذر، أن يعوُد إسماعيل إليهم بِصورة ابنهم البارِ وليس العاق، ذي العقلِ الراجِح المُتزِن وليس السكير اللعوب. نعم لقد فعلتَ ما تُريدهُ الآن ولكن لم يتبق لك أحد، أنت كالخريف كلما اقتربتَ من تحقيق أحلامِكَ تساقطَ منك أحباؤك حتى تبقى مفرغًا من كل رُوحِك لا أحدَ سواك أنت، بائسٌ ووحيد، تُجربُ معنى الوِحدة أن يَكونَ أمَامكَ الكُل ولا أحدَ مَعك، مبرُوك، لقد وصلت إلى غايتِك، هنيئًا لك ولكِن هل كان هذا الأمرُ فعلًا يستحِقُ أن يروح ضحِيتهُ أربعَةُ أشخاصٍ؟ اثنان هنا واثنان في قبر الدُنيا، هُناك ونَضعُ نُقطةً كبيرة ولا نرجِع للسطر أبدًا.

إن كثرة إعطاءِ الأشخاص للفُرص يضيع قِيمة الشيء، يصيرُ وجودُه مثلَ عدمِه لأن وُجودَه كان مليئا بالألَمِ والأسىَ، رافق وجوده الحسرةَ والكثِير من الآهات، فقط نُكمِلُ طريقنَا مُحملينَ بالكثيرِ من الذكرياتِ التعيسة، والماضي الأليم، الألمُ لا يُغادِرُ الجَسدَ، ينفي الحاضِر، يُبقيك بين مَخالبِ الوجَع كُلمَا حاولت إدارة وجهك عنهُ أعادَ جرحَك لأنه من الأسَاس جِراحك لم تُشفَ بعد أو مقدرٌ لها عدمُ الشفاء، جُرحُ الروحِ أعمقُ بكثيرٍ من جُرحِ الجسدِ، هناك من بُتِرتْ أحدُ أعضائِه إلا أنهُ ما يزالُ يجد الطريق

إلى السعادة لأن روحهُ ما زالتْ تطلبُ الحياة. الروحُ تفنى قبل الجسد، تشِيبُ قبل الشعر. لا حياة لجُثثِ الصلصَال بِدُون الرُوح، لو لم تكن الروح غالية لما خُبئت عن الأعيُن ووضِعت داخِل الجسد لكي لا تتأذى، ولا تُأذي. عندما تتعفنُ الروح يصدأُ الجسدُ ويكون الألمُ مضاعفًا، عندما تكونُ دائمًا أنتَ من تُحاولُ وحدكَ الذي يسعى إلى المُحافظة على من تُحب، وهو فَقط يخْتلق الفُرص للهُروب أو يُشبعك من أنانيته، من لا مُبالاتِه...

الحُب لا يموتُ، لا يعرفُ الفناءَ، لا يُمكِن لأحدٍ أن يقُول لك قد نسيتُ من أُحب أو بالأحرى من كنت أُحب، إن الحُب كالفأرِ السارق يأتيك في العتمة متسللًا ليأخُذ ما يريد مِنك ثم يُغادر. الحُب لا يزُول، لا يتلاشى، بل يغُوص ويختبئُ في الأعماقِ، في رُوحك، يأتي كل مرةٍ ليُذكِركَ بأحوال فَقيدك، ويخرُج للعلن عندَما ترى من تُحب، حتى وإن يئِسْت من الحُب فإنك تحتفِظُ به في زاويةٍ من قلبك كالوردة التي تُمنح تعبيرا عن الحب، صحيح أنها تذبلُ وتجِف، ولكِنها لا تُرمى بل تُخبئ.

وأنا أجُر أذيالَ الخيبة عائدة إلى بيتنا في العاصِمة طريقٌ طويلةٌ، أحلامٌ مبتُورةٌ معانقةٌ بقايَا الروح وجسدٌ مُحترقٌ بشظَايَا الرَغبةِ المُنتهية، أفكارٌ تفترِسُ وجودي تنتهِزُ فُرصة انكِساري لتفترسني فريِسة زمنٍ طازجةً. داهمتْنِي إغماءة الإرهاق تلك كمن يُريد الاستيقاظ في حُلمٍ جَميلٍ وأُكمِل حياتي هُناك وليسَ في هذا الكابوس المُشوه. فتحت عينيّ صباح اليوم التالي، وأنا اشعُر بألمٍ كبيرٍ في جسدي، ثِقلٌ لم أشعُر بهِ من قبل، روحي منسلخةٌ. كنت أروي له ما حصل لنا في تلك الرحلةِ بينما هو فكان يسخَر من

أحداثِها، ويعيد روايتها بطريقةٍ هزلية تجعلُك تستصغِر الأُمور. ما لم يَمنحني إياه أبي البيولوجي مَنحهُ لي أبي علي بالمجان. الكُل يمتلك قلبًا ولكن هناك من هو شِحيحٌ في عواطفه... هو عزائي الوحيد في هذه الدُنيا عن يُتمٍ بوجودٍ أب على قيد الحياة، انجلت غمامةُ الكدَرِ عن صدري، هَمٌ وانزاح عنه، تركت كل شيءٍ خلف ظهري، تركتُهم وبدائيتِهم في صراعٍ مع ذاتِهم، مع الكمال، مع الوقت، مع أفكارهم... تعهدت في قرارة نفسي أنني لن أعود إلى تلك القرية مجددًا لم يحز في خاطِري سوى شقيقة قلبي أحلام. سأشتاق إليها كثيرًا. آمل أنها قد أحسنت الاختيار ولو جزءًا من المئة. هي لم تختر، لقد كان زواجُها نتيجَة تراكُمات لأفكار خالتي نورة رغم أن زوجها كريم لم يرتح له قلبي منذ البداية، فهو كالإمعة في يد أمه تُسيطِر عليه سيطرةً كلية.

لا يمكنُ لأحد أن يؤذيكَ بالقدرِ الذي تُؤذيك به عائلتُك، لأن أذيتهم تكُون بعد أن يفرشوا لك بِساط الأمان. أنت تؤمَنُ في قرارة نفسِك أن أُمك هي أمك لأنه لا يُوجَد قلبٌ يُحِبك أكثر من حُبها لك، ولا يُوجد أمانٌ أكثر من أمان والدك، هي أفكارٌ غريزية، أنتَ تعرفُ أن أُمك لا يمكن أن تكرهك أو أن تتخلى عنك وأن أمانَ والدك لن يتحول إلى حربٍ فجأة لكن هذا المقياس غير صحيح دائما... وهكذا تدعس الأيام على أجسادنا لتترك لنا آثارها تنضُج من خلالها عُقولنا وتضيق قُلوبنا. لقد مر على كل هذا ثلاث عشرة سنة ولم تتبق سوى خطواتِ الألم المُوجِعة تُذكِرُنا بِنفسها من حينٍ لآخر. ربما أبي البيولوجي جاء في يومِها ينتقِم من أمي بالرغم من أنها لم تفعل له شيئا ينتقِمُ منها على العدَمْ. أرادَ مفاجأتها

فانتقمت عن كل لحظاتِ ألمِها ووحدتِها. لم تمنحهُ هبةَ النسيَان. جسدُها قد تآكل الآن ولكنها منحتهُ ابنتين يذكرانه بما فعل في ماضيه البائس بالرغم من أننا لم نتلق منه سوى الجفاء... لا يهم، فلتتولَّ السماء معاقبة كل من كان سبب في خلق الدمارِ في أنفس البشر البريئة.

3

يومٌ آخرُ من سنواتِي العشرين والسبعة ينقضي، أسابقُ فيهَا الزمنَ من أجلِ الحُصول على وظيفةٍ أُخرى ليتسنى لي التملصُ من مكتبِ الكهْل العجُوز أصلعِ الرأس، السيد مُصطفى أشرف صاحبُ مكتب الاستشَارات القانونية والأسرية رُغم أن دراستهُ، وتخصصهُ في هذا المجال إلا أنهُما لم يُسعفاهُ كثيرًا في علاقاتِه الزوجية. لا أستغرب من حظي السيّء أنهُ قادنِي للعملِ لديه، حتى أنني متعجبةٌ لبقائي في منصِبي منذ شهرين، فكلُ المُساعِداتِ اللاتي كُنَ قبلي انفصلنَ رغم أنهُن لم يتمِمْنَ فترةَ التجربِةِ. لا أتعجب من أمر انفصالهن عنه، كذلك هي حاله مع طليقاتِه بسبب كثرةِ علاقاتِه النسائية، وأطقُمِه الرسمية التي تفُوحُ مِنهَا العُطُور الأُنثوية، لم يشفَع له تقدُمه في السِن من الرضُوخِ لواقع أنهُ باتَ عجوزًا تنصَبُّ عليه لعنَاتُ السيداتِ اللاتي يتحرشُ بِهنَ، بل تعدى الأمرُ إلى زبوناتِه، والعاملاَت عنده، لذلك فإن قرارَ انفصالي عن مكْتبِه لم يكُن بالأمرِ الصعب.

استطعتُ أن أُجسِد أحد أحلامِ أمي كوثر، حلمٌ لا ينتمي لي بأي شكلٍ من الأشكال. أصعبُ شيءٍ يُمكنُ أن يقترِفهُ الإنسان في حقِ ذاتهِ هو أن يكون مُطالبًا بِعيشِ أحلامِ الآخرين، تَستعيِر فِكرهُم وطُموحاتِهم في الحياة، تُعيرُ حياتَك من أجل الآخرين. الأمرُ أشبهُ بإلغاء وجودِك تمامًا. سعيُها الحثِيثُ في أن تُجسِد أحدَ أحلامِها بيِ دَفعنِي لاختيار تخصُصِي الجامِعي بناءً على رغبتِها، هي التي كانت تسعى إلى أن ترانِي أستاذةً للأدبِ العربي بينما كانتْ طموحاتِي

تقودُني إلى مُنحنياتٍ أكثَر جمالاً على الأقَل كانت تُمثِلني، ولكن لا السفينَة أرادت مُصارعَة الرياح، ولا الرِياحُ رأتها خصمًا لتُصارِعهُ من الأساس. المعركةُ حُسمت على الشاطئ. تَمكن أبي من تأمين وظيفةٍ لي من خلال أحد معارفِه القدامى الذي يدير إكمالية خاصة والذي رتب لي موعدًا معه. في فجر اليوم التالي أذبتُ القليل من بُنِ الحياةِ في فُنجَاني الصباحي قليل السُكر. كان مناسبةً للالتحَاق بالإكمالية مُحملةً بكثيرٍ من دُعاءِ أمي.

يومٌ مُشمسٌ فَاتنٌ تَرقُدُ فيهِ الغُيومُ البيضاء القُطنيةُ على وجنتي الشَمسِ الهادئة، تلوحُ في الأفق اللازوردي بأشِعتِها الدافئة فوق ممراتِ الطُرقاتِ المسجدة بالأحجار. في الطريق المؤدية إلى الإكمالية حي راق ذو طرازٍ مِعماريٍ فخم تتربعُ فيه الإكمالية التي غَلب عليها الطِرازُ الكلاسيكي الفِرنسي في تركيبةٍ أرستقراطية جميلةً تخلو من أنامل الفقرِ الذي يدعسُ على أحلامِ الكثيرينَ في الضِفةِ الأخرى من المدينة. تمامُ التاسِعةِ صباحًا. أجلسُ منتظرة دوري للقاء المُدير. كان الفُستَان الأسودُ البسيط مناسبًا تمامًا، يعكسُ الأناقة العملية وخُصوصًا في اللقاءات الرسمية، والذي يحتمي بخصلاتِ شعري الذهبية المُلقاةِ عليه وسَط مِشبكٍ عاجي أبيضَ جميلٍ لبِستهُ أمي كوثر يومَ زفافِهَا من أبي. لا أعرفُ لم أحييتْ ميلادَهُ اليوم؟ رُبما لأنهُ يُلائِم أقراط اللؤلؤ التي أرتديها.

هَمهمَاتُ وداعٍ تُسمع من وراءِ بابِ المُدير الذي تلوحُ من خلاله ملامِحُ رجلٍ وسيمٍ، تبزُغ من الباب علاماتُ الترف والفخامة باديةٌ عليه. انعكست زرقةُ الطقم الذي كان يرتديه على عينيه اللتين كانتا مرسى لبلادٍ جديدة غير آهلةٍ بالسكان. مستقيم الأنفِ بارزُ

الذقنِ ذو وسامة لافتة، رجلٌ ثلاثينِي يعلمك كيف يمكن أن تكون كلاسيكيًا بطريقتِه هو. أشقرٌ ذو لحيةٍ خفيفةٍ قمحيُ البشرة كان يشبهُ عارضي الأزياء الإيطاليين، أو نعم هذا ليس المدير بالطبع فأبي قال أنهُ صديقهُ وهو يعرفهُ منذ زمن، وهذا ليس هو بالتأكيد... بدا في غاية الأهمية لمرافقة المدير إياه إلى الباب، أتلصص عليه بنظري كمن يتفحص لوحة فنية لأحد الفنانين عثر فيها على السر الذي لم يكتشفه أحدٌ قبله، سرٌ لا يعرفهُ سوى صاحبُ اللوحةِ، والعاشق لها، ولكن هذه المرة كانت اللوحة حية نظر نحوي وهو مار من قربي متجاوز لي. أظن أنه حتى اللوحات يمكنها أن تتغزل بعشاقها أيضا، صرفت نظري المُرتبك عنه بسرعة عند التقاء العيون، لا أعلم لم تكون المواجهة صعبةً أحيانًا بينما الهروب يكون الباب الأقرب الذي ندق عليه...

أستجمع بعضًا من ذرات الهواءِ الكفِيلة بأن أحبسها في صدري لإكمال تلك المقابلة بسلامٍ حتى أظفر بالوظيفة، فأنا أكرهُ المُقابلاتِ الرسمية أكثر من كرهي للبازلاء. ابتسامةٌ مصطنعة، ابتسامةُ كل اللقاءاتِ الباردة، لقاءاتُ أصحابِ ربطاتِ العُنقِ، كعب حذائي الأسود يدق بلاطه الفخم متقدمة نحوه.

آنسة ملاك كامل، ابنة صديقي العزيز، مد يده التي صافح الشيب محياها مُرحبًا، تفضلي بالجلوس، عرفتك من عيونك التي يُقطف منها الياقوت مرحبا بصديقي وابنته.

لم يستغرق وقتا طويلا بعد سؤالي عن مستواي التعليمي وإن كنت عملت قبلاً، الأسئلة التي تتكرر مع كل لقاء عمل أردف قائلا :

آنسة ملاك، يجب أن تعلمي أن مدرستنا خاصة، وأغلبُ التلاميذ الذين يدرسون هنا أوضاعهم المادية لابأس بها أو ممتازة. أغلبيتهم ينتقلون، ليس الأغلبية بل الكل، فنسبة النجاح عندنا سنويا مئة بالمئة. أنت الآن ستكونينَ أستاذةً بديلة للأستاذة الأصلية لأنها أخذت عطلة مرضية. ستستقبل مولودًا عما قريب.

انتهت مقابلتي معهُ بابتسامةٍ باردةٍ، أمضيتُ على إثرها العقد يمكنني الآن أن أبدأ العمل في الغد.

تمكنتُ أخيرًا من الظفرِ بوظيفةٍ على أساسِ الشهادة التي لم تثر بي الشغف يومًا. فقط نضطرُ أحيانًا للبسِ العديد من الأقنعة من أجْل تصنُع الفرح. بالرغم من أنها وظيفة مؤقتة إلا أنها تظلُ أحسنَ من سابقاتِها. في صبيحةِ اليومِ التالي من صباحاتِ شُباط التي كنت أحاول أن أُجدِدَ الفرحَ المخفي فيهَا كلون أزهارِ الساكُورَا اليابانية، أحدُ الأثوابِ التي اقتنَاها لي أبي بالأمس مع مجموعةٍ أُخرى من الملابس الخريفيةَ، لكِن تعلُقي بهذا الفستان كان لسببِ أنه جَذبنِي إلى أول يومٍ التحقت به إلى المدرسة، فتاةٌ زهرية جميلة بطول المتر ذهبت لتتعلم أما الآن فانا من تُعلم. تمكنتُ من اختطافِ بعض من بركاتِ قُرر عيني وخَرجتُ من البيت لأبد أولَ أيامي كمعلمةٍ. تأخرتْ الشَمسُ في الطلوع اليوم. فضلت الاحتفَاظ بإغفاءتها المُحتشمة تلك خلفَ السُحب الرمادية الكئيبة. سياراتٌ كثيرةٌ مصْطفةٌ أمام مدخل المدرسة كموكب لرئيس مختلفةٌ أنواعُهَا وأحجامها، ولكِنها اتفقت على أن تكوُن عنوانًا للفخَامة، أما أنا فقد شكرت صاحب الحافلة لأنه توقف لي في مكان قريبٍ من هنا لكي لا أضطر للسير كثيرًا. اتجهت إلى قاعة الأساتذة التي

غلب عليها الطراز النابليوني الإمبراطُوري، أثاثٌ يُحاكِي العصر السابع عشر لا يختلِفُ كثيرًا عن غُرفَة المُدير. التي وجدت بها مَجموعَة من الأساتذة يتبادلوُن أطرافَ الحديث. تعرفتُ على زميلتين لي في المدرسة: ليندة وجهان التي تدرسُ مادة الرياضيات التي كنتُ ولا أزالُ لا علاقةَ لي بها لا من قريبٍ ولا من بعيد، إلا أن جهان كانت متجسدة لعملها تماما كأنها خلقت له. لمحت ذلك من نضرة الذكاء التي كانت تشع خلف نظاراتها الطبية السوداء بجسمِها النحيل وعيونها الخضراء الواسعة، وشعرها الذهبي المسدل فوق كتفيها والذي يغازَلُ منتصف ظهرها في هدوء. أما ليندة فكانت أستاذة لمادة التاريخ والجغرافيا ممتلئة الجِسم، قصيرة القامةِ ذاتَ بشرةٍ قمحيةٍ تميلُ إلى السواد. كانت تنظر لي تارة وإلى عمر تارة أخرى. رُبَما كَانتْ متضَايقَة من حديثِه معي على الأغلب، كان عمر مدرس اللغة الإنجليزية ودودًا جدًا ذو وجهٍ بشُوش وعيون عسلية طويلُ القامة ذو لهجةٍ جميلةٍ وصوتٍ رُجولي عميق. أظُن أن لهجتَه الإنجليزية تِلك امتزجت مع لُغتِه العربية فأخرج لهجة خاصةً به هو فقط.

اتجَهتْ إلى القِسْم الدِراسي مُرتدية مئزرا أبيضَ، أحمل بَعْضَ أقلام السبورة. عُدةُ الأستاذِ التقليديةِ، كبِداية أُولى جلستُ على مكتبِي متأملة وُجوهَ التلاميذِ الذين يلقُون عليّ التحية، شُعورٌ جَميلٌ، المرة الأولى من كل شيء تكُون جميلة ومُميزة وتَعلقُ في الذَاكرة أما كل ما يليهَا فهو رُوتيِن، روتينٌ قاتِل ليس إلا. لم تَتعدَ الحِصة الأولى الإطار المُخصَص لها للِتعارُف، وتَطبِيب المَعارِف القبلية التي عانت منه هذه اللغة فسادًا رهيبًا، فلا يَكفي الغُبار

الذي لحِقَها من استعمال اللغة الدارجَة عليها بل وتعدى الأمرُ إلى تَطفُل بعض اللُغاتِ الأجنبية الأخرى عليها، وهذا ما لحظته من خِلال حوارِي البسيِط الذي لم يتعد بوادِره الأُولى مع التلاميذ في الفَصل، كونهم جعلوا من التفاخر والغُرور شِعارًا لحياتهم. صارت اللغة العربية مهملة لديهم، فالبعض يتكلم بالعربية مكسرة بألفاظ من الفرنسية، وآخُر هُناك يتكلم الإنجليزية. حاولتُ إلغاء هذه العادة على الأقل بالنسبة لحِصتي، ولكن بطريقتي الخاصة بالإسبانية عَم صَمتٌ حادٌ لحْظتها كَأنني تلوثُ عليهم بعض التَمائِم أو أَنهُم سمِعوا إعلانَ حربٍ فبالغوا في الإنصَات، ولكي أمْسَح غُبار الجَهْل عن وُجوهِهم أعَدتُ ترجمة ما قُلتُه لهُمْ. أنا أشكُر الحصص التي أخَذْتُها في الجامعة حول تعلُم اللغة الإسبانية، كأول حِصةٍ لم نَتناول فِيها سِوى العُموميَات لا غير، إلا أن الأغلبية لم يَكونوا بذلك المُستَوى بل يُمكنني القولُ أن مُستواهُم كانَ دُون الوسَط حتمًا.

عانقَني التعَبُ في هاتِه الأُمسِية الخَريفيَة التي يُحاوِلُ جَميعُ من فيها العَودَة إلى مَسكَنِه كَتِلك النَوارس التي تُنادي المرسى أن يحتضنها مجددًا، وتلك الشمس الراغبة في البحر كصورة ارتشاف أخيرة. كل شيء ينام باكرًا في هذه المدينة حتى أن خطوات الناسِ تغادر شوارعها أبكر جدًا، أظن أن أيام حظر التجول ما تزال عالقة كالوشم في عقولهم وأجسادهم المنهكة، غادرني هذا اليوم الغريب الذي رميت فيه بتجربة جديدة حاملاً لي في نهايته لذة عناق سريري، السابعة مساءً تزاوج الروائح التي يطلقها المطبخ، دعوة للأكل غير مباشرة، إنها أمي بالتأكيد، وكالعادة نهضت

متأخرة لمساعدتها. بدأت تفتش في يومي اطمئنانًا وراحة لقلبها الصغير تجاهي. عادتنا منذ بدأت يومياتي بعيدا عنها. مهما آذتك الحياة وضقت بنفسك ذرعًا، ومهما نفد صبرك ويئست زهرة أملك اتجه لأمك، فهي كماء مبارك تفيض دائما ولا تيأس، تحميك بما تبقى لها من ضعفها وتسمعك بالقليل الذي تبقى لها من سمعها، وتراك بقلبها لتمنحك الطاقة وقذائف من دعائها.

كانت تتملكني الرغبة في توصيل الرسالة للتلاميذ كما أحببت أن تصلني أنا على الأقل، وكما تمنى أي أحد قبلي، دون إعادة الصورة المكررة للأستاذ التقليدي الذي يخنقك بمعطفه الأبيض وحقيبته السوداء، نحن لسنا في حرب، دعوا الأمر يكن أبسط فمئزرك الأبيض ما هو إلا صورة للملاك الذي يحمل رسالة سامية. ولكن قبل كل هذا وجب علي مقاومة كسلي، فلطالما كرهت كل الأشياء التي يحيط بها الروتين... التعلق أبسط الأمور وأسهلها على القلب وهذا ما حدث بعد مزاولتي للمهنة التي كنت أظن أنني لن ألتقي بها، ولن أكون سعيدة بتجسيد فكر لا يخصني، ويوما عن يوم بدأ تفاعل الصفوف التي أدرسها يزداد مع البرنامج المقدم، أصبحوا أقرب إلى قلبي حتى أن مساعيهم لتحصيل وللتحسن بدت جلية، فعندما تحب فإنك تعطي وتبذل في سبيل الشيء الذي تريده، وإذا لم تشعر بالراحة فإنك تعد الدقائق من أجل الذهاب، ولكن ليس للعودة مجددا.

بوادر انتهاء الفصل الأول بدأت، الأسبوع الأخير من العمل، هذا ما أخبرني به المدير بعد استدعائي إلى مكتبه، حيث أخبرني أن المعلمة الأصلية ستعود لمزاولة عملها بشكل عادي بعد أن أنهت

عطلت الأمومة المقررة لها قانونا، في الحقيقة كنت أعلم أن هذا اليوم آتٍ لا محالة ولكنني لم أكن أعرف أنه سيكون بهذه السرعة، هدوء رهيب داخلي، لم أقل شيئا البتة. خرجت لأكمل ما تبقى لي من الأيام هنا. سيكون حضوري كملاك بدون ميعاد، وكذلك وقت مغادرتي.

كان ما يزال في جعبتي آخر ساعة أقدمها للتلاميذ اليوم، حتى طرق سمعي حديث جانبي بين الطلاب بينما كنت أكتب خلاصة الدرس في السبورة. ربما لن أحظى بهذه الفرصة إلا بعد مدة لذلك لم أولِ الأمر أهمية. ظننته لا يتعدى حديثا عابرا بين التلاميذ. كانت مصفرة الوجه فاقدة لوعيها، بالكاد يستطيع ذلك الكرسي منعها من السقوط، كما فشلت أنامل زميلتها في إسنادها لتقع جثة هامدة على الأرض، كانت نور متجمدة ترتعد من البرد، يستطيع أي أحد ملاحظة ارتطام أسنانها ببعضها، في إشارة غير مفهومة مني طلبت منهم أن يخبروا الإدارة بالأمر، حاولت إبقاءها دافئة، ألبستها معطفي، متوترة جدا، لا أعرف ما أفعل، كنت قلقة وخائفة عليها... ما إن حضر المدير حتى قام بالاتصال بالإسعاف يحملها إلى مكتبه واضعا إياها كوردة ذابلة فوق أريكته بدون روح، لا أدري ما أفعل إلى أن دق جرس الإسعاف طبلة أذني ليدخل المسعفون الغرفة حاملين النقالة بين أيديهم. جسوا نبضها وهاهم يحملونها مبتعدين، كنت متجمدة في مكاني كأنما غرست ساقي في بلاط القاعة الباردة. تحركت من مكاني أتبع النور بظلام حالك في عيني أخبرها أنها ستكون بخير....

كنت متشرنقة حول نفسي في غرفة استعجالات مصغرة مسرعة بها إلى المشفى. سارعوا إلى إدخالها لإحدى الغرف أنتظرها خارجا تقبل خطواتي في الممر ذهابا وإيابا كهاجر تلوح بين الصفا والمروة، وفي ذهابي وإيابي ذاك قدم رجل مهرول يطوف بنظرات مربكة يمينا وشمالاً، ضخم الجُثة، فتح باب الغرفة التي كانت تتواجد فيها نور ولكن الممرض سرعان ما أخرجه منها.. بدت عليه علامات الجزع والخوف، يرطم يديه في بعضهما البعض وكأنه خسر إحدى صفقاته، وماهي إلا لحظات حتى خرج أحد الأطباء من الغرفة. تبعثرت كل أفكاري في طوفان فزع متجهة نحوه بسؤال واحد:

-كيف هي نور؟

قاسم حروفها معي في نفس اللحظة ذلك الغريب، أخالُه يعرفها أو ربما هو أحد أقاربها، يطالعنا الطبيب متسائلا:

-أنتِ أحد أقاربها؟

بصوتٍ منقطع أجيبه: لا. ولكنني معلمتها.

بنبرة وجل شديد يتدخل ذلك الغريب:

-أنا، أنا خالها ما بها؟ ماذا حدث لها؟ أهي بخير؟

لابأس، لقد قُمنا باللازم. الآن كانت تعاني من انخفاض حادٍ في نسبة السكري في دمها وكذلك ضغط دمها كان منخفضا جدًا، الآن يجب أن تبقى هنا حتى نتأكد من أن كل شيء على ما يرام، طهورًا إن شاء الله.

دلف مسرعا الغرفة في عجل. ألقى بكل قلقه وخوفه، بكل لحظة من لحظات توتره فوق نور. رسم قبلة حارة مليئة بالحب

والألم فوق جبينها ممسكًا يديها الصغيرتين. كانت تطالعهُ بفرحٍ وحب بعينيها الذابلتين اللتين رسم تحتهما خط أخضر أُرجواني كألوان الكون... مسح بيده على رأسها في توجس خاطر قائلا:

-أرعبتنا عليك جدًا. ماذا حدث؟ كيف حالك الآن؟ ألم تتناول أدويتك؟

حركت شفتيها اللتين باتتا أرجوانيتين في محاولة خلق شق ابتسامة مدفونة في وجه تأكُله الصُفرة والإرهاق:

-بخير، بخير. لن أذهب لمكان وأتركك، لا تقلق.

الحُب رزقٌ ونِعمة يَهبها الله لمن يشاء في مثل هذه الأوقات لتكون داعمًا يساعدك، وقد تجد شقائق روحك مختبئة في العديد من الأوجه والملامح التي تجهلها.

طالعتني نور بينما كنت واقفة يسند خوفي باب الغُرفة المتكئة عليه بصوت ضعيف مبحوح تناديني قائلة:

- آنسة ملاك، أنت أيضا هنا! يبدو أن كل الذين أحبهم قد اجتمعوا اليوم.

دلفتُ إلى الغرفة بخطوات مرتجفة. قبلت جبينها. الإرهاق كان كل ما تجلى على محياها تلك الأمسية.

- حمدا لله على سلامتك عزيزتي نور. أفزعتنا عليك كثيرًا، ها أخبريني كيف حالك الآن؟ هل أنت بخير؟

أومأت لي برأسها صعودًا وهبوطا:

- لا بأس. سأكون بخير.

وجهت نظرها نحو خالها قائلة:

نسيت أن أعرفكما على بعض، آنستي هذا خالي ضياء، وهذه حبيبتي معلمة اللغة العربية آنسة ملاك، إنها أستاذةٌ رائعة، والجميع يحبها...

تبادلنا ابتسامات دافئة فيما بيننا، وقلنا "متشرفين" المرة الثانية التي تكون كلماتنا في نفس اللحظة، أردف قائلا:

- ألم نلتقِ قبلا؟

أتمعن ملامحه الأوربية باحثة عن مكان لمحته فيه لكن ذاكرتي أبت أن تسعفني، خاصة بمناسبة الأحداث المتسارعة التي مررتُ بها اليوم، والتي مزقت شبكة تفكيري قائلة:

-أعتذر. لا أذكر. ربما نكون قد تقابلنا من قبل، ولكن بعدما حدث اليوم لا أظن أنني سأتذكر...

- لا بأس، ولكنني على يقين بأنني رأيتك في مكان ما فأنا لا أنسى وجوه الأشخاص البتة، المهم أنك لن تنسيني الآن فقد بت تعرفينني، أليس كذلك؟

وكأنه يريد أن يُرسخ لقاءنا هذا بتأكيد مني، أجبته بشكل عادي متجاوزة الأمر كشيء عابر لا يستوجب مني التوقف عنده، نعم بالطبع.

غير أن هذا لا ينفي ذلك الشعور الذي يوحي إلى ذاكرتي أن ملامحه تلك قد مرت على قارعة خيالي. فعلا، قد أكون حقا رأيته أو ربما شخصٌ يشبهه، لا أعلم حقا، توجه بنظره إلى نور مخاطبا إياها:

- نور، سأحضر لك شيئًا لتتناوليه. يبدو أنك لم تأكلي شيئًا منذ الصباح، فالسكر عندك انخفض بشكل رهيب:

ابتسمت له نور ممازحة إياه قائلة بلطف:

لقد انخفض السكر لدي قبلا، ولكنه الآن ارتفع بمجرد أن رأيتك. من الأفضل أن تبحث لي عن طريقة لتخفيضه وليس لإرجاعه لوضعه الطبيعي...

أعجبتني محاولة تلطيفها للجو، هي كانت تعلم أن خالها قلق عليها جدا لذلك كانت تحاول التخفيف من حدة توتره بمُزاحِها الذي يتنفسه كالنسيم البارد في يوم شديد الحرارة. نظر إليّ متسائلا:

- آنسة ملاك، أيمكنك البقاء قليلا مع نور ريثما أعود؟

- لا بأس، سأتولى الأمر.

الوقت يمر ثقيلًا كقطرات المصل التي كانت تقتحم عروق نور التي شكرتني بدورها على البقاء معها ومساعدتها. حاولت إلهاءها بالحديث ريثما يعود خالها، صوتُ رنين هاتفي يكسر هدوء الغرفة. إنها والدتي، الخامسة والنصف مساءً. تأخرت قليلا وهذه هي بوادر قلقها جراء تأخري. أوصدت باب الغرفة كي لا أزعج نور أثناء حديثي على الهاتف، في وجل وخوف شديدين صاحت في وجهي عن سبب تأخري:

- أين أنت يا ملاك؟ لماذا لا تجيبين على هاتفك؟ اتصلت بك مرارًا، هل أصابك مكروه ما؟ أنت بخير أليس كذلك؟

بصوت رتيب أحاول طمأنتها علي وزرع بعض السكينة في قلبها:

- أعتذر لأنني لم أتصل بك قبلاً. أنا بخير. سأخبرك بالتفاصيل لاحقا. سآتي بعد قليل. لا تشغلي بالك، تعرض أحد تلاميذي لأزمة صحية مما دفعني للبقاء معها في المشفى لبعض الوقت...

زفرت بينما كان الصمت يستحوذ عليها قائلة:
- أنت متأكدة؟
بعدما سكن قلبها بالطمأنينة أغلقت الهاتف بعد أن أغرقتني بالنصائح والإرشادات للعودة إلى البيت كطفلة صغيرة:
- سأرسل والدك ليصحبك إذن.
- لا تشغلي بالك عزيزتي. سأعود بمفردي كوني مطمئنة.
كانت نور قد غفت. المسكينة.. بعد مشقة يوم مضن بين جدران المشفى الباهتة، وما هي إلا دقائق حتى داهمني صوت السيد ضياء الذي أفزع دواخلي، حيث لم ألحظ دخوله الغرفة. قال معتذرا:
- أعتذر إن أفزعتك. كان الباب مفتوحا، غفت إذن!
- لا عليك. لم يمض وقت طويل قبل أن تغفو. أظن أنها يجب أن تنام قليلا. هي بحاجة للراحة الآن:
بنبرة تميل إلى الهمس أردف قائلا معلقا عيونه علي:
-آنسة ملاك، أقدر لك جدًا موقفك هذا واعتناءك بنور. لن أنسى لك هذا المعروف أبدا، أنا متشكر فعلا...
- لا بأس. أنا لم أفعل شيئًا. هذا واجبي فقط، المهم أن تتماثل نور للشفاء وتصح في أقرب وقت، وبما أنك بت هنا الآن أستسمحك. يجب علي العودة إلى البيت. أظنني تأخرتُ قليلاً.
رفع أكتافه العريضة عارضا أن يقلني أو يوقف لي سيارة أجرة، لكنني رفضت بطريقة لبقة:
- أشكر عرضك ولكنه من الجيد أن تبقى مع نور في حال استيقاظها، حمدا لله على سلامتها مرة أخرى.

كانت مستغرقة في النوم. بدأ يرجع لونها الطبيعي، وتتورد وجنتاها. بدت وكأنها مضطجعة فوق الغيم برفقة الملائكة عندما اختطفت قبلة وداع من جبينها. غادرت المشفى. كان الليل يسحب ملاءته السوداء بصعوبة في تلك الأمسية من أيام كانون الأول الذي ينام باكرًا. السماء ملبدة وكأنها ستنبجس من الغيظ، ولكن لا وجود للغيث المنهمر سوى دفء الجو الخانق الذي كان يغلف تلك الأمسية. يتراءى لي من بعيد أبي ينتظرني بمقربة من محطة الحافلات، الوطن الأمن الأول. ترجلت من السيارة رافعة إليه يدي في إشارة مني أنني وصلت. هممت معانقة حضنه الذي يربت على سنيني والذي أحوى هموم هذا الرأس. رجل اكتفى بابنة متبناة أغنته عن ابن يحمل راية اسمه في العائلة. لم يشق علي بالأسئلة. اكتفى بالسؤال عن حالي ونظراته تطوف حولي تتبين صدق كلامي، لكنني لم أمنعني من أن أسرد عليه ما جرى في يومي الشاق بينما كنا عائدين إلى البيت. كنا كالنجمة والهلال في العلم. تغفو النجمة في حضنه مطمئنة، تطالعنا أمي من الشرفة بعدما توسم وجهها وانزاحت عنه غيوم التوتر، سارعت لفتح الباب لنا، ولكن أمي ليست البتة كوالدي فهي لا تستوعب أعذارك وحججك مهما كانت واقعية وكثيرة. تتمسك برأيها حيال الموضوع ولا تغيره، ففي نظرها مهما كنت صائبة فستتحملين العبء الأكبر من الذنب، لم أسبقها لاصطناع الحجج أو التذرع لها كالمعتاد، فالموقف كان فوق مشيئتي، تلاحقني نظراتها المعلقة بي، تتفحصني بإمعان، دنت مني وغمرت وجهي كله بكفيها كأنها تريد أن تتأكد من سلامته، أن تتحرى الحقيقة من بؤبؤ عيني. قبلتني قائلة:

- أهلا بك عزيزتي. قلقت من تأخرك. اذهبي واغسلي وغيّري ملابسك ريثما أحضر لك شيئًا تأكلينه. يبدو أنك لم تأكلي شيئًا منذ الصباح.

فاجأتني ردة فعلها تلك، فغالبا لم تكن لتتركني بمفردي حتى تفهم كل القصة، وتظل ترمقني بنظراتها تبلغني بها عدم رضاها على ما فعلته، أما الآن فقد انقلبت المعادلة، على الأغلب أنها تريد أن تستلمني ولا تترك لدي أي ثغرة. أفر من تساؤلاتها، الآن كالجريدة بين يديها. تريد أن تسأل وتستفهم عن كل شيء خوفا وحرصا عليّ. فتارة تسألني وتارة تلقمني الأكل من يديها الطاهرتين. لو أنني كنت ابنتها من صلبها لما خافت علي هكذا، لكان الحمل قد خف قليلا. أظنها تُحمِل نفسها مسؤولية كبيرة، فهي لا تعتبرني مجرد ابنة قذفتها الأقدار في حضنها تُؤنسها وحشة الأربعين، فالعمر الأول مر وحيدا مُرًا حتى جئت أنا وجاء أبي علي، بل تحملت وصية جدي عندما أودعني عندها، وأمانة أمي التي تركتها خلفها لا أريد الحديث عن أبي البيولوجي فهو لا يعني لي ولها شيئا، فلم يكترث ولن يكترث لا اليوم ولا بالأمس.

تمكنت من تمزيق خيوط الحيرة والخوف من على جبينها وبدأت تتوه من على محياها علامات الارتباك والتيه. أخال أنها باتت الآن بخير واطمأنت روحها الطاهرة. اجتاحتني رغبة ملحة في النوم فلم أتمالك نفسي وجرتني أحلامي على الأريكة، ألم كبير يرقد داخل عظامي ورغبة في أخذ سبات طويل تتجدد معه طاقتي. أرعبني صوت أمي وهي توقظني. لقد كان سباتا قزما على ما يبدو. حسبت أن النهار حل. كنت منهكة. لم أنم بالقدر الكافي ولكنه

طمأنني ذيل جملتها التي تدعوني فيها إلى العشاء. ابتسمت ابتسامة المنتصر الذي فاز باليانصيب، في تثاقل ووهن أحاول تحريك جسدي المثقل وتوجيهه نحو باب الغرفة متوجهة إلى غرفتي لتحرير جسدي من التعب والإرهاق الذي يسكنه، أظنها باتت تعرف أنه لا رغبة لدي في تناول العشاء. أطالعها بشق نظرة يكسرها النعاس ممازحة:

- لا رغبة لي في تناول العشاء ولكنني لا أمانع أن تحضري لي فنجانا من القهوة.

كنت أعلم أنها لا تحب إدماني الشديد على الكافيين، خصوصًا أنها لا تحب شرب القهوة، فكلما رأتني أسرف في شربها تنصحني أن أجالس أبي في المقهى وألعب الدومينو والورق...

رفعت حاجبها الذي تتدافع منه الشعيرات الشقراء واحدة تلوى الأخرى كأنها تلقي بتحيتها وظلالها على عينيها الخضراوين الجميلتين كحجر العقيق الأخضر في استنكار لما سمعته مني لتوها. فهمت فحوى تلك الحركة. فقط كنت أريد أن أودعها بطريقتي:

-أمسية سعيدة. تصبحون على خير.

في العادة كنت أعتبر الأربعاء يوم راحتي المعتاد في تلك المدرسة، أما الآن فهو الأخير، وغدًا يكون آخر أيام الفصل الأول حيث يستلم فيه التلاميذ كشوف نقاطهم. مما يعني أن وظيفتي قد انتهت هناك. لم أجمع أغراضي بعد ولا رغبة لي في الذهاب اليوم، فقد سارعت أمي في أن تخصص برنامجا لنا اليوم، وذلك من خلال أخذي معها للتبضع بما أنها كانت ترغب في تغيير أثاث غرفة

المعيشة. أرافقها من أجل أن تقتني أشياء تتوافق مع رغبة الجميع وكالعادة تسألني عن رأيي وتأخذ الشيء الذي يروقها هي. لطالما كانت الوعود التي تقطعها على أهلك لا يمكنك الإخلال بها. وإلا كتبت لك في سجل تاريخك الأسود، وستخرج للعلن في كل مرة ترتكب فيها أي خطأ مهما بدا تافها وتصير قدوة ومثالا يستشهد بك في العقوق.

نهضت من فراشي في خمول، أمسح عني بقايا أحلام البارحة، أتخلص من أغلال الأرق الذي كبلني ونغص علي هدوء ليلة جميلة. جزء مني يدعوني لأقتل الصباحات الأولى من هذا اليوم بين أحضان سريري تاركة هم الاستيقاظ للجبناء، لأولئك المشغولين الذين تختطفهم مشقة الحياة من صدور حبيباتهم في كل صبيحة مكدرة بغبار الشقاء. السابعة صباحا، أعتصر القليل من الكافيين في كوب القهوة العربية ذي الرغوة البنية الكثيفة مع دعوات أمي الخائبة والمتكررة وإلحاحها علي بالإفطار. ها هي تخفض صوت المذياع قليلا لتغوص بي في حكايات جاراتها وأخبار الحي الذي كانت دائما مُمهِدًا لشيء رئيسي يجوب في فكرها، تدنو مني حاملة في كل مرة دعوة للزواج من أحدهم تذكر لي سماته وخصاله المحمودة، وسلوكه الجميل، لترتاح هي وتخرس جاراتها المتسائلات عن عدم زواجي والهمهمات التي تنم على أنني عنست، لتنتهي بذمي عند كل جواب بالرفض وعدم القبول، وها هو صوتها يجلجل علي، يستعجلني لأنهي قهوتي لنَهُم بالخروج، وكذلك استنكارًا لرفضي الدائم لأشباه فرسان الأحلام الذين تعرضهم علي. وها هي تعود أدراجها إلى المطبخ لتعد الغداء لوالدي لحين

عودته، وتتصل لتطمئن على وصوله إلى البيت وتناول الطعام، أو بالأحرى إن أعجبه، ليتزين ثغرها بابتسامة النصر كأنها أول مرة يثني على قدرتها في إعداد الطعام أو أول مرة يتذوقه فيها...

الحب هو الرعاية. أن تجد في الطرف الآخر ما لا تجده في نفسك، أن تجد كلك فيه. تبصره بقلبها قبل عينيها. كانت كتابا مفتوحا بالنسبة إليه، وكالفنجان هو في يد قارئه، ذلك مزيج من الزجل ولكنهما مزيج من الحقيقة.

بخطى ثابتة راحت تتفحص بإمعان الأثاث المعروض في كل مرة ترمقني فيها حينما تتوقف عند شيء راقها، وتحديدًا التصاميم الكلاسيكية القديمة كبيرة الحجم، المليئة بالزخارف والنقوش التي تبحث فيها عن الفخامة والتي لا تختلف عما تركناه خلفنا في البيت. فبالنسبة لي يروقني الأثاثُ العصري البسيط الذي يبرز تفاصيله الناعمة والأنيقة، ذو الألوان الهادئة وبالأخص اللون الأزرق الفيروزي الذي يضفي جوًا من الرقي والنعومة. وكنهاية أي أمر بيننا فإنها تسألني عن رأيي لتأخذ ما يروقها هي، فإذا قامت بأخذ شيء على أساس ذوق أحد آخر وكانت مترددة بخصوصه لا تتوانى أبدا في إرجاعه واستبداله بشيء يروقها أكثر. يوم مضنٍ شاق استنزفت فيه كل طاقتي بحثا عن القلة الجميلة من كل شيء وصعوبة إرضاء ذوق أمي التي ترفض أي عرض مني.

كللت يومي هذا بشراء بعض من المأكولات السريعة ومشروبات غازية للعشاء، تعب اليوم يغرز في مفاصلي التي وهنت من الركض. لم أتوان أبدًا في وضع الأكل الذي أحضرته في الصينية متجهة بها إلى غرفة المعيشة لأتناوله أنا وأبي، فأمي لا تحب هذا النوع من

المأكولات الجاهزة... كانت غرفة المعيشة صحراء قاحلة خالية من أي شيء. غاب عن ذهني أنهم قد أخذوا كل الأثاث معهم. انتابتني نوبة ضحك هستيرية خصوصا عندما رآني أبي مازحا:

-لم يبق شيء في هذه الغرفة غيرنا. نسيت أمك أن ترسلنا مع العمال.

عدنا كمن ضيع مكانه وسط الزحام إلى الملجإ الوحيد: المطبخ. وباشرنا الأكل، لقمة في فمي واثنتان في فم أبي قبل أن تقع نظرات أمي الغاضبة عليه، لأنها ما كانت ستدعه يأخذ راحته في مثل هذه المأكولات، وها هي تطل علينا موجهة نظرها مباشرة إلى أبي تطالعه في تساؤل:

-ماذا يا السي علي؟ أنت لم تخبرني عن رأيك في الأثاث الذي اقتنيناه. هل أعجبك؟

يمسح على يدها بلطف وهو يعلم أنها تترصده بنظراتها كالصقر الجارح قائلا:

- أنت اختياري أنا، ومادمت قد اخترتها أنتِ فكأنني اخترتها أنا المهم أن فيها روحك وهذا الذي يهمني.

نهضت أمي محمرة الوجنتين وقالت مغادرة:

-هيا أكملا طعامكما. لقد سبقتكما لتوضيب الأثاث. لا تتأخرا.

أشرنا بالموافقة ورجعنا لمأدبتنا الفخمة.

فرغنا من توضيب الأثاث الذي لم يتبق منه سوى بعض اللوحات الفنية من التراث التصويري الجزائري. باشرا في تعليقها، دلفت لأخذ حمام دافئ أنزع به مشقة اليوم وإعياءه. كان عرضا مغريا لا يمكنني رفضه بعد يوم مرهق. في الغرفة حيث ترقد نفسي

إلى أشيائي الخاصة أتابع بنهم ألحان موسيقى الجاز بصوت Ella] Fitzgerald]التي تملأ المكان بصوتها القوي. تبادر إلى ذهني حينها حالة نور وتوجس قلبي من حالها بالأمس. بدا عجزي واضحًا في السؤال عن حالها فأنا لا أملك حتى رقم هاتفها لأطمئن عليها، على الأغلب أنا سأذهب غدًا إلى الإكمالية وهناك سأستشف حالها. تتصيدني الأسئلة المعلقة في بقايا ذاكرتي: هل التقينا فعلا من قبل؟! أيعقل أنني رأيته من قبل في مكان ما؟! على الأغلب لم أنتبه له، كأن وجهه قد مر على ذاكرتي، ولكن أين بالتحديد؟ لا أذكر؟ بدأ النوم يغازل عينيّ ورموشي مثقلة بملايين الأحلام والأمنيات للأيام الجميلة التي آمل أن أصادفها، وما هي إلا برهة حتى قمت في ارتياع من غفوتي تلك أتلفظ بكلمات متقطعة ومقلتاي شاخصتان في الفراغ.

- نعم، إنه هو بلا شك، الشاب الذي رأيته خارجا من مكتب مدير الإكمالية، يومها ذهبت لمقابلة العمل، في الغالب كان هو ...

مقاطعة شرودي السخيف هامسة في قرارة نفسي: ماذا يعني؟ ماذا سيتغير في كل الأحوال؟ إن عرفت أنني قابلته سابقا لا شيء يدعو لكل هذا الانفعال أساسًا.

تطبطب على كتفي بحنو كفها لأهرب من مضجع الليل إلى شقاء النهار، ارتديت فستانا كحليا قصيرا وجوارب نسائية طويلة لأغوص في معطف الفرو في ذلك الصباح الذي يرمي بلفحات البرد لتغوص في أعماق أرواحنا، الياقوتة السوداء، هكذا أردفت أمي معلقة علي اليوم، أما بالنسبة لي فالأسود يعني لي الكثير خصوصا اليوم. وسط غمرة وانشغال الكل في المدرسة أحسست أنني غير

معنية، تشرنقت في معطفي في قاعة المعلمين كأنني أستجمعني كلٌّ بعالمه، ألملمُ بعض كتبي التي كانت تؤنسني في كيس من أجل أن آخذها معي حين مغادرتي. في غمرة أفكاري التي تشاركني اللون الأسود أيضا أتأملني في ارتياع وتوجس خاطر خشية مصير غير واضح. ترقص أفكاري على عزف متسارع. كيف أؤمن عملا آخر؟ كما أن راتبي كان جيدا هنا، فبالأمس جئت بدم بارد واليوم ها أنا ذي أغادر المدرسة. ازدردت ريقي، أخذت نفسا طويلا لأخرج به كل تلك الأفكار التشاؤمية من ذاكرتي، دخل الأستاذ عمر على عجل يدعوني للالتحاق بهم فقد بدأ توافد الأولياء من أجل الاستفسار عن أولادهم.

كان كل شيء مرتبا وواضحا وغارقًا في المثالية. نتائج التلاميذ جيدة وبالأخص في فصلي. كل من درستهم كانوا يذكرونني والسعادة ترتسم على وجوههم، وهذا بالنسبة لي إنجاز يكفيني فالمناصب تشترى ولكن هاته الفرحة الموجودة في داخلهم لا تزرع بالمال، ولا يمكن اقتناؤها، الساعة قاربت منتصف النهار. سينتهي دوامي لليوم في خطى هادئة متعبة. أقبل الأرض. سآخذ أغراضي وأهم بالمغادرة، قمت بتوديع بعض الزملاء في العمل لأنصرف كاللبؤة المنتصرة المنهزمة، كأنني اصطدت فريسة وأكلها غيري... خطوات سريعة قريبة من بعضها تقرع طبلة أذني. تداهمني على حين غرة بعناق من الخلف لأستدير في تيه ودهشة، أمرر يدي على خصلات شعرها الكستنائية، أتفحص حالها وأطمئن عليها، أبحث وراء بلور عينيها عن شيء يخبرني أنها باتت بخير معاتبة إياها على قدومها بدل مثولها للراحة، صوت ندي عميق يتكفل هو بالإجابة:

- من واجبي أن أعلمك يا آنسة نور أن لك من قوة الشخصية والرقة لتأثري على قلب نور بل وليس نور فقط... لم يمنعها مرضها أن تأتي اليوم لتراك.

تتبدد تلك النظرة التائهة بحثا عن الصوت لترتسم مكانها ابتسامة عابرة للسيد ضياء، شاكرة له على لطفه ومجاملته المنمقة، وها هي ليندة تداهمنا مسرعة بلهفة قائلة:

-حمدًا لله أنك لم تغادري بعد قبل أن أراك.

لتنسحب بعدها معتذرة لتدخلها ذلك وتهم بالذهاب في إشارة منها أنها تنتظرني.

بصوت رتيب يعلن فيه السيد ضياء أسفه واعتذاره على تأخيري، أشحت بناظري عنه مودعة نور قائلة:

- عزيزتي، أتمنى لك الصحة والعافية، هيا لا تخذلينا، في الفصل الثاني يمكنك أن تتحسني أكثر مع أستاذتك السابقة...

في توجس وريبة تطالعني نور بعينيها الغائرتين في بشرة تشربت الصفرة رغبة منها في فهم السؤال بلهجة مرتبكة، تطبطب كلماتُها طبلة أذني بنبرة خافتة مائلة إلى الوشوشة:

- حقا أنت ذاهبة؟!

تقلب مقلتيها في حيرة والتباس، تطالعني، تستجدي مني الجواب كطفلة تستعطف أمها البقاء معها. في محاولة مني طمأنتها أردفت قائلة:

- من قال لك أنني سأغادر العالم؟ أنا سأغادر المدرسة، فقط ما يزال بمقدوري مساعدتك في أي موضوع يشغلك، بالرغم من أنني متيقنة من أنك في غنى عن مساعدتي لأنك ذكية.

كانت كمن يود أن يترك جزءا من داخلها في روحي بذلك العناق وهمت بالرحيل، ما أسهل الحب عند الأطفال، ينبت كالأزهار البرية في كل مكان، صمت برهة من الزمن وهو يترقب بإمعان ما يحدث ثم أردف قائلا:

أهناك خطب ما يجعلك تغادرين المدرسة؟

وبدوري سردت له حقيقة وجودي هنا وحملته سلام نور.

غادرت المكان الأول الذي تحملت فيه عبئا فعليًا يستحق العناء. هكذا تخلصت من مهمة توديع الجميع، الذين جمعني بهم هذا المكان. أظنني يجب أن أودع ملاك أيضا، الأستاذة ملاك. ها أنا الآن كالصرصور لا أفعل شيئًا عدا أنني بت أقتات على أفكاري التشاؤمية، بت عاطلة عن العمل، يمكنني الآن البدء من جديد .

4

على ذلك الفراش الحريري كنت أغازل أوجه الكتب العابسة في صباحات كانون الثاني المذاب في رائحة المطر المنهمرة بغزارة، تأتيك رائحة التربة التي يثيرها المطر الغزير، ضباب سحري يحتضن المدينة ويلتحفها كأنه يتأكد من أن المطر قد غمرها بالكامل. تحتقن فيك الرغبة لإطالة وقت كسلك العذب. تشدو فيه من رحيق الكتب العابسة المرصوصة ببراعة، الأشياء الوحيدة التي نستلذ كثرتها من حولنا، دائما ما كنت ضعيفة في كبت الكمية الضخمة من الأفكار والكلمات التي تنسج أبعادا مختلفة في ذهني الذي يقبل مذكرتي بسرعة، كانت الفرصة سانحة لأغرق في عالمي، كل يهاجر إلى عالمه في هذا الفصل. انحصرت مشاويري في الذهاب إلى مكتبة العم فريد لاقتناء بعض الكتب وقراءتها، وانتهى بي المطاف في أن أتولى تسييرها في هذه المدة ريثما يعود هو من الريف. إنه موسم جني الزيتون. عدت إلى البيت أهدهد علي بكوب شاي دافئ، أنتزع عني لفحات البرد التي كانت تقرص وجهي كالإبر. حتى نغص علي تلك الأمسية اتصال المدير بي رغبة منه في رؤيتي بخصوص أمر هام لم يفصح لي عنه.

في صباح اليوم التالي أمضي في حيرة والتباس إلى الإكمالية. استقبلني بحفاوة إلى مكتبه على غير العادة. أثنى على مجهوداتي وتمكني من عملي بالرغم من أنه لم يثن علي حالما تركت العمل قبلا، كانت عيناه تطالعاني بشيء من القوة لم ألمحها سابقا،

ليتمكن أخيرا من الإفصاح عمّا يلف هذا اللقاء من غموض حيث أردف قائلا :

- لا أخفي عليك آنسة ملاك، أنك كنت من بين طاقم الأساتذة المشهود لهم بجدارتهم وأثبتّ هذا في وقت قصير فعلا، لذلك كان أمر استغنائنا عن خدماتك اضطراريا كما تعلمين، ولكن بعد زوال هذا المانع أقترح عليك مرة أخرى أن تنضمي إلينا ثانية، فما رأيك؟

كانت عيناي معلقتين به، أتابع ما يقوله، في دهشة أطالعه، أرفع كتفي في حيرة مما يقوله، إنها ضربة حظ بالتأكيد كانت تقاسيم وجهه مريحة العرض جدي طبعا ولو لم يكن كذلك لما عرض علي العمل لديه. لم أتبين حقيقة ذلك إلا وأنا أمضي العقد معه مرة أخرى كأستاذة رئيسية للمادة، مر كل شيء كالحلم. أقف في صدمة أزدرد ريقي كأنها معجزة...

لقد انتصرت مرة أخرى يا كوثر، تطالعني في ذهول محاولة تحري الأمر الذي أخفيه عنها من وراء بلور عيني. كان قلبي يرفرف كفراشة الملاك سيلفينا. عانقتني عناقا طويلا تستنشقني به كأنها تريد أن تعود لها الحياة بهذا النفس، كمن كان غريقا وتنفس الهواء لأول مرة، انزويت في غرفتي في تلك الأمسية حتى سرق مني النوم جمال صورة لهيب النار المشتعلة في الموقد. عدت إلى كتبي لأغوص في رومنسيات نزار قباني ومحمود درويش والأدب الروسي وكتب التنمية البشرية لأشبع نهم تلك الأخصائية النفسية وأخرس أسئلتها التي كانت حلما فشل في البزوغ، في جلسة هادئة يتابع أبي نشرة الثامنة بإنصات مبالغ فيه، لا يكاد يتأثر سمعه بأي كلمة

مما تقوله تلك المذيعة الشقراء، أما أمي فبقيت بجانبه كعادتها، لم تفارقه، تداعب فنجان الشاي بأناملها المحمرة من الحناء.

إصباحة قوية على صوت الرعد الذي أخرس كل شيء ممزقا صفحة السماء التي ما تزال ملتحفة السواد، ضامة إليها السحب القطنية شديدة السواد، لفحات الهواء الباردة المحملة بذرات البرد من أعالي جبال جرجرة تدفعني إلى الأمام. أحكم إمساك المظلة التي كانت تحجب عني الرؤية، صوت فرملة عنيفة تحبس الدم في عروقي، التوى على إثرها كاحلي بعدما تعثر كعب حذائي، لا أدري من أين ظهرت تلك السيارة لأكون فريسة سهلة لها جراء عدم انتباهي وشرودي، كادت لتُمزق فرحتي بين مطاط إطارات تلك السيارة الكحلية الفارهة. زجاج أسود يحجب الرؤية... وما هي إلا لحظات حتى برز شخص منها يدنو مني في وجل وخوف سائلا عن حالي، محاولة إسناد كاحلي الذي كان يلتهب من حرارة الحادث، أخذ قلبي يخفق بسرعة بحيث اختلط علي الأمر، هل هو يخفق من صدمة أنني كدت أدعس؟! أم من الشخص الذي كان سيدعسني؟! كان وجهه مصعوقا. أخذ يتفحصني بعينيه بإمعان يمسك ذراعي كمن كانت في يده وردة بيضاء يخاف عليها أن تنكسر أو أن تتلف. لم يكف للحظة عن الاعتذار. محوت كل ما كان باديا علي من توتر وارتباك محاولة استجماع ما تبقى لدي من شجاعة لأبدأ حوارا أو أنهيه. لا أدري فعلا، ولكنني كنت أرغب بشدة في الخروج من هذا الموقف، ما زال يرمقني بخوف يظهر جليا في عينيه اللتين ظلتا معلقتين في وجل شديد، وتنفسه السريع الذي كان يلفح وجهي... أسئلته الكثيرة تنهمر فوق رأسي كما تنهمر فوق رأسه

خيوط الغيث التي غيرت لون طقمه إلى الرمادي القاتم، معتذرا في كل كلمة على ما بدر منه، دعاني للجلوس في السيارة لأرتاح قليلا على الأقل، بينما ذهب ليحضر قنينة ماء بعد رفضي مرافقته إلى المستشفى على إصابة عرضية. لا أعرف من بات يهدىء الآخر؟ أنا أم هو؟ شعرت أنه كان متوترا جدا بعد أن هدأت أو أظنه هدأ هو. صمت هنيهة ثم زفر بتهكم ونظر نحوي بدهشة:

-ماذا تفعلين هنا؟

تبزغ ابتسامة هادئة على وجهي قائلة:

-لقد عدت.

كأنني كنت مهاجرة وعدت إلى موطني. نظر إلى عيني مطولا وكأنه كان يريد أن يرسم صورتهما في مخيلته، كانت عيناه تلمعان كأنما فيها وميض أو بعض من نجوم السماء. نزلت وقبلت خده واستقرت في عينيه. قال بصوت خافت قليلا:

- مبروك سعدت جدا بعودتك. ستفرح نور كثيرا بهذا الخبر.

- نعم أظن ذلك

بابتسامة ماكرة أردف قائلا:

- لا تظني بل كوني متأكدة. ليست هي فقط من ستسعد برجوعك.

ختمها بابتسامة نصر علت محياه. باغته سؤال تبادر إلى ذهني حينها:

- كيف عرفت أنني عدت إلى التعليم؟ قد أكون مارة من هنا بالصدفة أو ما شابه ذلك، لم يكن جوابي بتلك الدقة حتى

تستنتج بأنني قد عدت إلى المدرسة بالتحديد، ربما عدت إلى المنطقة؟!

يطالعني باستغراب قائلا:

- كان مجرد تخمين فقط.

نظرت في عينيه أخبره بأن إجابته لم تقنعني البتة لأنه عندما هنأني كان واثقا جدا حين قالها:

- كسر هدوء اللحظة صوت جرس المدرسة. كانت الأمطار قد توقفت عن الانهمار بغزارة. ترجلت من السيارة مودعة إياه معتذرة لأنني كنت سببا في تأخيره.

ناداني قائلا:

- المرة القادمة ارفعي الشمسية من على وجهك. لا تحرمي الناس من النظر في عينيك الجميلتين.

كالغبية كنت أطالعه، أحسست أنني أشبه ما أكون إلى طالبة ثانوية تودع حبيبها الأزعر، قاد سيارته الفخمة وانصرف من المكان، أما أنا فبقيت متسمرة في مكاني، كانت أمي تقول لي دائما أنها رأت ليلة القدر ولكنها لم تستطع الدعاء ولا حتى التكلم، بل تجمدت في مكانها... وها أنا ذي الآن في نفس موقفها، ولكن الحدث هو ما تغير إلا أن الإحساس واحد. سحبت جثتي المنبهرة إلى داخل المدرسة واتجهت إلى غرفة الأساتذة بوخز في كاحلي، وكعادتهم، كان الكل منهمكا في الحديث، وكعادتها جهان تصغي إلى ليندة وهي تحكي وتحكي بدون توقف، حتى أنني أتعجب منها كيف لها أن تأتي بكل هاته الأفكار والقصص التي لا تنتهي أبدا؟ فأينما لمحتها وجدتها تتكلم. تعلو منها صرخة تفزع بها كل من في القاعة، كأنها

لمحت شبحا. أقبلت نحوي مسرعة تحضنني وتقبلني بالرغم من أن علاقتنا لم تكن إلى ذلك الحد من التوافق. الجميع سر بعودتي وأنا أيضا أحببت الأمر كثيرا، أحببت هالة السعادة المنتشرة في المكان. كان يوما يشبه العيد...

الرابعة عصرًا. أتممت يومي الحلم عائدة بي إلى البيت، بينما كنت أتصفح وجوه الكتب العابسة، إذ بعيني يغازلهما النوم في إغفاءة معلقة بين الصحو والنوم. أطالع هاتفي لكي أتبين الوقت وعيني ما زالت تعانق الأحلام والأخرى بالكاد ترى شاشة الهاتف المشعة. اتصال معلق لم أرد عليه. رقم غير مسجل لدي ولكنه بدا لي مألوفا، لا بل كان مألوفا جدا. أظنه رقم السيد ضياء. اتصلت بي مرة نور من هاتفه وأخبرتني أنه رقمه، إلا أنني لم أكترث لتسجيله عندي على خلافه هو، على ما يبدو في محاولة للتحرر من تلك الأسئلة التي كانت تلطمني يمينا وشمالا لتستولي على الجزء المهجور من الذاكرة، مخيلتي الأنثوية تنسج لي العديد من الأفكار الوردية من الآن في محاولة مني لرميها عرض الحائط متأملة شاشه الهاتف، تراودني الكثير من الأسئلة تستجدي الإجابة عن سبب اتصاله المفاجئ هذا، ماذا يريد من فتاة مثلي؟! هل سيعاود الاتصال بي؟! أم أنا من أعيد مهاتفته؟... تمالكت نفسي قليلا محاولة كبت فضولي الأنثوي لأحكِم عقلي وأحسم قراري، تربعت على السرير كأنني أقبل على تناول وجبتي، يجول خاطري وأنا معلقة بصري على شاشة الهاتف، فتارة ترتسم على وجهي ابتسامة سخيفة لا تتوانى على الاختفاء عند انكماش حاجبي من الحيرة... سأعاود الاتصال به وأنفض غبار الفضول

من مخيلتي. أمسكت الهاتف وكأنه ألة زمن تأخذني إلى عالم آخر، عالم لم أقتحمه أبدًا، تكبل يداي رجفة كأنني لم أهاتف أحدا قبلا أو أنني لم أحفظ الأرقام يوما... كان بيني وبين زر الاتصال الملايين بل مليارات المسافات الضوئية، أتصل لأنفصل عن ارتباكي الذي تضخم بعد رنين الهاتف وهو لا يجيب، كان صوت الاتصال من جهة وصوت صافرة إسعاف قلبي من جهة أخرى. كاد قلبي يخرج من حدوده. تراه أين كان ذاهبا؟!

أكب أطنان اللوم والعتاب عليَّ. الآن ربما يكون قد خلد إلى النوم. إنها الحادية عشر والنصف وفي فصل الشتاء؟ من عساه يبقى إلى هاته الساعة؟ ما كان يجب علي أن أتصل به. ماذا كان يحدث لو تركت أمر مهاتفته إلى الغد، وبينما تحولت أحلامي في ثانية من حلاوة التفكير إلى مرارة الندم، حتى رن الهاتف في يدي معاودا الاتصال بي مجددا. ألفت قصة من سوء الظن عبثا... سرقت ما يمكنني أن أسرقه من ذرات الأكسجين وفتحت الخط وبكل ثبات وركيزة أجابني بصوته الرجولي الخشن الذي تتراقص عليه الكلمات كما تتراقص على السلم الموسيقي:

-آمل أن لا أكون قد أزعجتك بمهاتفتي في هذا الوقت!

بكل سذاجة وسخف أجيبه بالنفي.

-لا. لم تزعجني فأنا لم أنم بعد.

- ممتاز

قالها وكأنه بلغ مراده...

-ممتاز! لماذا؟

-لأنني كنت أود الاطمئنان عليك خصوصا بعد حادثة الصباح. لقد كدت أن أدهسك، أنسيت ذلك؟

أردفت قائلة: نعم، ولكن الخطأ كان خطئي من البداية، وأنت لا دخل لك. أنا لم أنتبه للطريق. هذا كل ما في الأمر.

- ولكن عليك أن تنتبهي جيدا لنفسك، فالروح غالية وأنت غالية.

دب صمت رهيب بيننا لحظتها، فأنا لم أجبه بل أخرست وإذ به يكسر ذلك الصمت الرهيب قائلا:

- تذكرت. مبروك عودتك لوظيفتك. كنت تستحقينها فأنت رائعة.

أجبته ضاحكة رائعة! تقصد أنني أستاذة رائعة.

أجابني بقوله:

ملاك رائعة، رائعة وفقط.

لم أفهم حينها أكان يقصد ملاك المعلمة أم ملاك الشخص... إنه في لحظات استطاع أن يتخطى الحدود التي يرسمها البشر بين بعضهم، بات يناديني "ملاك" بدون تكليف ورسميات كلما فكرت في التملص والتهرب من أحاديثه العفوية العشوائية، كأنه يتكلم بدون أن ينتقي مواضيعه... كان يجذبني إليه وكلماته تلك تهاجمني وتسرق سمعي وتركيزي، لقد كان عفويا لدرجة كبيرة. أنهى المكالمة بقوله:

- وداعا. سنلتقي غدا، تصبحين على خير

بالرغم من دفء الغرفة إلا أنني كنت متجمدة في مكاني وكأن أحدهم قد سكب فوقي برميل ماء متجمد، وها هي الابتسامة

الساذجة ترسم معالمها مرة أخرى على وجهي، ابتسامة الكلام الحلو والشعور الجميل... هاته المرة وداع للقاء ولقاء بموعد، ليس ككل مرة. عدت بعدها لمعانقة سريري فارة من مخيلتي التي كانت تبحر بي بعيدا، لا أعرف أين كانت ستأخذني ولكنني متأكدة من أنها سترسم لي عالما كالحكايات. تبدأ جميلة ثم تغدو عادية وتنتهي تعيسة...

تجربة أمي تتكرر في كل العلاقات، فشلها الذريع، تجربتها القاسية، أراها في وجه كل من يتقدم لخطبتي. الكل شبه إسماعيل، أُفَضل وحدةً باردة على حب جارح. لا يمكنني حتى بدؤه ولا يمكنني تحمل عواقبه، لا أستطيع أن أعيش حياة عادية... رهاب العلاقات الفاشلة يلازمني منذ مدة، الركاكة في الإيمان بالطرف الآخر حتى أنني بت متحجرة لا أسعى حتى إلى الخوض في علاقات عرضية في سعي دائم للكمال، حتى رسخت لدي هاته الفكرة. يمكننا الاكتفاء بأنفسنا غالبا، وهذا ما أنا به مكتفية بوحدتي حتى التخمة، لا أمنح الحب ولا أطالب به، فقط أنا منهكة جدا وفي غنى عن أن يستهلكني شخص آخر، كنت سأنسى ربما لو سامحت وتناسيت، ولكنني لم أنسَ ولن أنسى ولن أسامح، ولن أصفح... أخاف من أن أخذل مرة أخرى. لا أريد أن أعيش. ملاك أمي يكفي ما حدث لي، ولا رغبة لي في استكمال الجحيم الذي بدأته الحياة معي. لهذا عشت هاربة من ذاتي، من وجودي، من الماضي، من كل شيء وإلى لا شيء، ولكن بالمقابل كانت تلك الومضات تغازلني مرة بمرة، حتى سرقتني في تلك الليلة. نمت

بغصة في قلبي ولكن الفرق هاته المرة أن غصتي مزينة ببعض البهارات.

إنه يوم بارد ماطر جديد. أفقت بطاقة إيجابية كبيرة. ثم خارت قواي بعدها بوقت قصير، بخطوات متثاقلة أقبّل الأرض في وهن، حتى أن جرعة الكافيين تلك لم تجدِ نفعا اليوم. كانت سيارته مركونة هناك بالقرب من الإكمالية، يومئ لي برأسه وابتسامة عريضة تبزغ على ملامحه النبيلة، لم أتوان أبدًا في مبادلته ابتسامة جافة عابرة. أكمل طريقي غير مكترثة فعليا للأمر. يدق صوته الرجولي سمعي مناديا عليَّ قادما باتجاهي.

تتفحصني عيناه بدقة كأنه يتبين أحوالها دون الحاجة لسؤال.

صباح الخير، كيف حالك؟

بخير وأنت؟

يواصل حملة استكشافه لي من خلال تعقبه لعيوني معمقا وكأنه يريد أن يغوص في روحي، قالها كأنما يقطف تلك الكلمات من أعماق روحه.

-بخير ما دمت أنت بخير.

راودتني ابتسامة عفوية معقبة على ما قاله ببلاهة.

- لا ليس إلى هاته الدرجة.

كان ردي غير متوقع البتة، جافًا جدًا حد السخرية. جوابٌ مقتضب، رمقني بعيونه الزرقاء تلك. رفع يمينه ملامسا لحيته الشقراء بصوت منخفض قليلا، يخرج من حلقه كأنه يخبرني سرًا:

-بالنسبة لي الأمر كذلك.

عم صمت رهيب لحظتها. شعرت أن الدم يتصاعد إلى رأسي، وجنتاي كادتا تنفجران من الخجل. انصرف دون إضافة أي كلمة أخرى. بقيت متجمدة في مكاني كدب الثلج الذي بناه أطفال الحي الشتاء الماضي، وما إن ابتعد عني قليلا حتى استدار نحوي قائلا:

-أتمنى لك يوم سعيدا ملاك.

بادلته الوداع متمنية له الحظ الجميل، كالسحر كان يرش عطره فجأة يلامس روحك ويختفي، وها هو جرس الثامنة يرن. لقد نسيت جثتي في الشارع وروحي طارت إلى عالم آخر. يشعرني دائما بقوته في دخوله وفي خروجه من الأحاديث كأنه مثالي في كل شيء. لا أعرف لماذا كانت ردة فعلي هكذا. كان يمكنني أن أكتفي بمجاملة باردة أو أن أنتظر نهاية ذلك الحديث الساذج، فلطالما قادتني صراحتي وعفويتي إلى المتاعب دوما...

بعد التخلص من مسؤوليات اليوم، ها أنا ذي أعود إلى البيت في المطبخ، أعد الحساء لأبي الذي عانى مؤخرًا من نزلة برد حادٍ تسببت في ملازمته البيت. لقد عانى في الآونة الأخيرة من أزمات صحية خصوصا ضغط الدم الذي أرهقه كثيرا والسكري. انزويت في غرفتي كالحمام الزاجل بعد العشاء، أقلب بريدي الإلكتروني وحسابات لي على مواقع التواصل الاجتماعي لا أدري لما كنت أترقب اتصال ضياء بي على الرغم من اتصاله بي الليلة الماضية كان هدفه السؤال عن حالي لا غير. وكيف عساه يتصل بي بعد البرود الذي قابلته به صباحا... أجد نفسي أمام شاشة التلفاز أختار فلما لأشاهده هذه الأمسية بعد فشل كل محاولاتي في استعطاف النوم وإغرائه من أجل القدوم إلي.

همهمات صادرة من غرفة والدي بدأت تتعالى تدريجيا. كان صوتها مرتجفا غير واضح. في وجل وخوف أسارع لاستبيان الأمر، صوت خطوات متثاقلة مسرعة متجهة نحو باب الغرفة. بالكاد وصلت إلى غرفتهما حتى فتحت الباب. هاجمتني نظراتها الوجلة، تلك التي اختفت وراء بشرتها التي تشربت الشحوب. حركت شفتاها اللتين جفتا كأوراق الخريف، كأنها خافت من أن ترمي الكلمات في الهواء فلا يحملها.

-والدك...

في إشارة منها بسبابة يدها المرتجفة، كنت كمن ينتظر خبرا سيئا. فهمت هذا منذ أن رأيت ملامحها الخائفة المنطفئة. تقدمت مهرولة باتجاهه. كان ممددا على السرير. وجهه متشرب لصفرة المرض. أبهت لا يحرك ساكنا. ناديته أبي مرة واثنتين وثلاثة... الكلمات تسد حنجرتي، تأبى مطاوعتي في الخروج، ولكنه لم يجبني. دنوت أكثر منه ولمست صدره. حركته قليلا ولكنه كان يبدو متجمدا وكأن الروح فارقته.

-مات! تقرع طبلة أذني كلماتها مرة ثانية.

صوبت نظري الفزع إليها، ثم إلى والدي وفي داخلي مشاعر تتضارب لم أجربها قبلا. لقد كنت كمن فقد روحه أو أسوأ حالا، ولعل ألم الروح لا يألم إلى هذا الحد، لامست يدي عنقه لأجس نبضه. ضغطت على يده كمن يتمسك بشيء يخصه لا يريد أن يفارقه أو أن يسرقه منه أحد. لكن الفزع أفقدني الشعور بالأشياء. أعاقت تلك الرجفة التي غلفت يدي فجأة والحرارة التي خنقت جسدي غليانا من أن أتحسس نبضه. أمد يدي مرة أخرى

إلى معصمه. أتحسس نبضه. أحسست هاته المرة وكأن عروقه تطبطب على يدي بلطف تطلب النجدة.. تسارعت معها دقات قلبي وسرعة تدفق الأدرينالين في أوردتي، صائحة في إشارة مني لأمي.

-الإسعاف، الإسعاف.. اتصلي بالإسعاف حالا.

أطول ربع ساعة من العمر وأنا أنتظر النجدة للقدوم، وإذ بصوتها يقرع طبلة أذني. اتجهت مسرعة إلى الباب كمن يريد الوصول إلى خط النهاية، لا من أجل أن يمزق شريط النهاية وإنما من أجل أن يقع ويرتاح، خرجت حافية إلى الشارع. نزلت قبل أن يرمي رجل الإسعاف بقدمه إلى الطريق. كنت في حالة أقل ما يقال عنها بائسة. صحت بصوت ممزق بالكامل:

- إنه بالأعلى...

اتجهت نحو السلالم مهرولة. كانت روحي تسبقني بالصعود والمسعفون يتتبعون خطواتي. كانت أمي ممسكة بيديها واضعة إياهما قبال قلبها، كأنها تريد أن توصل قلبه بأسلاك من قلبها كمن يريد أن يقاسمك روحه، المهم عنده أنك تتنفس بقربه، روحه التي إن غابت غاب...

حمله المسعفون بعد أن قاموا بإسعافات أولية، هنا أفلتت أمي تنهيدة وجع وخوف كأن صخرًا عظيم الحجم قد تزحزح عن صدرها. ركبنا السيارة ودقات قلوبنا فاقت رنين سيارة الإسعاف، إلا أبي كان قلبه يقبل الحياة كصبي حديث الولادة يخشى إيقاظه. وما إن وصلنا حتى سارع الطاقم الطبي من فوره إلى إدخاله للغرفة

وأغلقوا الباب، كأن مهمتنا انتهت عند هذا الحد. معانقة أمي كمن يسدل برنس الأمان عليها هامسة في أذنها:

- لا تقلقي. كل شيء سيكون على ما يرام...

ترفع عينيها نحوي، عيناها اللتين نالت منهما الدموع نصيبا فباتت محمرة، نسجت فوقها خيوطا دموية رقيقة، نفسها المتقطع يلفح وجهي كأنها لم تكن تتنفس هواء عاديا، بل كانت تتنفسه هو، تعض على شفتيها ألما وخوفا، وما كان علي سوى تهدئتها وتهدئة نفسي. في الرواق الباهتة ألوانه ننتظر خروج الأطباء من الغرفة، عسى أحدهم يزف لنا خبر سارا فتقرع طبول الفرح في قلوبنا وتزف الأخبار السارة في مساء الثلاثاء. نسند ضعف بعضنا بعضا، أخذت أردد في قرارة نفسي داعية من الرب الشفاء.

ولكن بالرغم من كل ذلك الخوف وتسارع الأحداث إلا أنني كنت في داخلي متيقنة من أن كل هذا سيختفي ويزول لأن جرسي الداخلي ينبئني بأنها سوف تمر. كانت الساعة الآن تشير إلى تمام منتصف الليل، الصمت كان سجانها الوحيد. في هذه الليلة لم تستطع التفوه بكلمة سوى أنها كانت تبادلني النظرات من حين إلى آخر. لا أنكر أنها كانت يائسة ولكن في عز يأسها ذلك كانت مقتنعة بشيء يسمى الأمل. تريد أن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء، إلى الساعة التي كانت تجالسه وتتسامر معه. وما هي إلا لحظات حتى استدار قفل الباب، وخرج رجل ضخم الجثة كان يرتدي مئزرا أبيضَ يصل إلى منتصف فخذيه من شدة طوله، ملامحه عربية قوية، أسمر، ذو شاربين كثيفين وشعر أسود داكن فحمي، حتى

أنني لم أنتبه له متى دخل، ومن أين دخل؟. نهضت مسرعة كمن ينتظر نتيجة امتحانه سائلة إياه بتلهف:

-كيف هي حال والدي؟! هل أفاق؟

طاف بنظره حول وجهي في عشر من الثانية قائلا:

- نعم. أفاق، ولكنه يحتاج إلى الراحة الآن، حمدا لله على سلامته. يمكنكم الدخول لرؤيته ولكن بدون إتعابه.

كانت أمي تنظر إليه كأنه الرسول الذي حمل الوحي لها فاستبشرت خيرا، أخبرني أنه يجب أن أحضر إلى مكتبه من أجل أن يستفهم مني عن حالة أبي الصحية.

اتجهت مسرعة وعيوني تسبق خطواتي. كان كورقة جافة تشربها بياض السرير مرهقا، متعبا. سارعت لاحتضان يده ودهن على جبينه المزركش بالتجاعيد. كان ينظر إليها كأنه يطمئنها على حاله بالرغم من أن وجهه كان مصفرا من المرض. اتجهت نظراته إلى الباب فوجدني متكئة برأسي على حافته. بزغ ثغره بابتسامة متعبة مادا إلي يده التي علقوا له فيها كيسا من المصل، تقدمت نحوه وقبلت جبينه الندي هامسة في أذنه قائلة:

-حمدا لله على السلامة قرة عيني.

اضطر أبي ليرقد في المستشفى لبضعة أيام أخرى ريثما تستقر حالته الصحية... وهكذا كنت بين زحام الأيام أترامى بين خوفي وقلقي عليه حتى أعاد إلى البيت بهجته المبتورة دونه. خف الحمل قليلا ولكن قلبه ما يزال متعبا وضعيفا. بتنا نقلق كثيرا عليه. نحاول الاطمئنان عليه في كل طرف دقيقة، حتى أن أمي قد

شددت عليه الحمية أكثر من ذي قبل. بتنا نتجنب الألم أو نتجنب الأذى الذي لحقنا من جراء ألم فقدانه المؤقت.

5

بداية أسبوع مليئة بالفوضى. غرفتي غير مرتبة أكثر من أفكاري. بالكاد أجد موطىء قدم. أهم بالذهاب إلى العمل بعد انقطاع دام أسبوعا. مرهقة. نال مني التعب الأسبوع الماضي، الشعور بالخوف يملأ دواخلي. خائفة وخوفي هذا لم يكن طبيعيا. قلبي متوجس منقبض يحدثني بوقوع شيء. باحثة عن هاتفي في حقيبة يدي التي فشلتُ في العثور عليه فرميت برأسي في عتمة حقيبتي باحثة عنه. كانت حقيبتي هاته الأيام مليئة بالأشياء التي أحتاجها والتي لا أحتاجها، دخلت فيها العديد من الوصفات الطبية والكثير من الأدوية، وما إن فتحت هاتفي حتى تزاحمت على شاشته الكثير من الرسائل عن مكالماتٍ فائتة من شخص واحد: "ضياء". أمسح علامات الشرود والخوف من على ناظري. أخرجت رقم أمي من القائمة الصغيرة في هاتفي. تنفست الصعداء عندما طمأنتني أو بالأحرى لم تخبرني شيئًا جديدا سوى أن حالته لم تتغير. كما تركته. المهم أن حالته لم تسُؤ فحسب وكل شيء يهون بعدها. ومن ثم اتجهت إلى القاعة لأبدأ يومي في العمل الذي لم أكن أرغب في أن أبدأه من الأساس... أكملت الأربع ساعات المقررة لي عائدة إلى البيت، أطمئن عن حال والدي الذي وجدت أمي تناوله الدواء. كان وجهه يبدو أحسن قليلا، حتى أن تلك الصفرة التي كانت تعانق وجهه قد تلاشت نوعا ما، ولم يبق منها سوى آثار تعب قرمزية تحت عينيه اللوزيتين.

غرق نظري في السماء الملبدة بالسحب الرصاصية التي تشبه حياتي الآن. أحيت فيّ الرغبة في إعداد فنجان قهوة أمسح به ذلك الإرهاق الذي يسكنني، بل كنت أحس أن جسدي وروحي منفصلان عن بعضهما البعض، مخدرة من الألم. كوب قهوة يتيم أحتسيه بمفردي، فبعد الآن ليس لدي أحد أشاركه القهوة. أمي من الكارهات لهذا المشروب وأبي وضعه الصحي وحميته لا يسمحان له بذلك. كان صوته منخفضا جدا يرن في مكان ما لا أذكر أين وضعته آخر مرة، تركته في الحقيبة! فتحت السماعة واتجهت إلى غرفتي. كان أول شيء سمعته بعد فتحي لسماعة الهاتف:

-هل أنت بخير؟

حروفه كانت مرتبكة مترددة، متوترة. أجبته بكل بساطة:

- لابأس، أنا بخير الآن.

-ماذا تقصدين بلا بأس؟! هل حدث شيء لك؟

ما زال يستعمل سلاحه كالمعتاد. يستخرج من أجوبتي أسئلة جديدة يطرحها عليّ. سكتت برهة من الزمن قبل أن أجيبه لتفلت مني تنهيدة طويلة. أحسست أنها كانت ترقد في فؤادي منذ زمن.

- لا. أنا بخير، ولكن أبي في الأيام القليلة الماضية تعرض لوعكة صحية تسببت له في أزمة قلبية حادة.

- أنا متأسف جدا. كيف هو الآن؟ أهو بخير؟ آمل أن يكون قد تحسن. أليس كذلك؟!

-لابأس، الأطباء قالوا لنا أنه سيتحسن ولكنه يجب أن يرتاح، وأن يتبع الحمية والأدوية التي وصفوها له، وأن يبتعد عن التوتر.

- ملاك. أنا متأسف جدا لهذا، هل تحتاجون إلى أي شيء؟ فأنا هنا أي شيء يمكنني المساعدة فيه. أخبريني بذلك حتى وإن لم أستطع سأبذل قصارى جهدي لأستطيع...

تنهدت وكأن مواساته تلك قد أراحتني، قد غسلت ما بي من ألم. أجبته قائلة:

- لا تشغل بالك، أنا أقوم باللازم الآن ممتنة لهذا فعلا...

- إذن أنت لا تذهبين إلى المدرسة لهذا السبب! لا تقلقي من الأمر. إذا لم تستطيعي الذهاب فأنا سأكلم المدير. معرفتي به قديمة.

-لا. لا تشغل بالك. اليوم كنت هناك وحللت الأمر.

- حسنا هذا جيد، ولكن كيف حالك أنت؟

ابتسمت بإزدراء.

- وكيف تتوقع مني أن أكون سوى فتاة كان والدها على وشك الموت؟

كنت كلما أشتكي له يؤنسني، يسعى إلى أن يرفع معنوياتي ويشجعني... أو بالأحرى كنت أنسى وجعي عندما كنت أرمي به عليه، ففي العادة كنت صديقة الصمت المقربة.

في استغراب مني أسأله قائلة:

- ولكن، أليس هذا الرقم الذي تكلمني منه الآن رقم دولي؟

صوت ضحكته تعلو كأنه سمع نكتة. أردف قائلا:

-كنت أظنك لم تنتبهي، نعم. لقد سافرت من أجل العمل. أنا الآن في باريس. سافرت الأربعاء مساء.

- حظا موفقا إذن.

- شكرا، سأعود هذا الأسبوع متى انتهيت من عملي...

وهكذا بين حيرة وخوف تجاوزنا هاته الأزمة. حمدا لله تحسن والدي، خصوصا بعد آخر مرة أخذناه عند الطبيب الذي طمئننا على أحواله.

أكملت دوري أنا كمعلمة في المدرسة، وبدأت تأخذ الأيام مجرى روتينيا، لا تشعر بالاختلاف فيها سوى أنك ترغب في إنهاء اليوم فقط. من جانب آخر كانت انتكاسة أبي الصحية أحد الأسباب التي تعلق بها ضياء وتقرب مني وقتها، فقد بات يتصل بي يوميا بحجة أنه يطمئن على أحوالي وأحوال والدي، لأول مرة كان حريصًا جدا على إدراجي في يومياته عن نفسه، وعمله، تطلعاته وأفكاره... لم يكن يبدو من نوع الرجال الثرثارين أبدا ولكنه كان كذلك معي، أما أنا فقد كنت أجيد قتل الوقت جيدا بين أوجه الكتب العابسة وقبلت العديد من فناجين القهوة تارة وغارقة في امتحانات وفروض التلاميذ تارة أخرى، حيث شارف الفصل الثاني على الانتهاء.

لم يتمكن ضياء من العودة بعد، فهو ما زال يصارع أعماله التي تركض خلفه. اليوم الأخير لي في المدرسة، حيث ذهب الجميع لرسم خطط لعطلة الربيع، أما أنا فلا توجد لديّ مخططات واضحة، غير أنني أستقبل الربيع من نافذة غرفتي على مشارف آذار المفعم بروائح حبوب الطلع والأزهار البرية المنتشرة في كل مكان. شقائق النعمان.. براعم الأشجار المزهرة... خمرة الطبيعة غير المنتهية.

في صباح اليوم التالي كنت متفرغة جدا لكل شيء، ما عدا أعمال البيت، إلا أن أمي كانت جاهزة جدا لها، فقد جاءت لتخطفني من سريري من أجل مساعدتها في تعزيل البيت، فهاته كانت عادتها منذ زمن، تطرد به برد الشتاء وقساوته وتشرّع لربيع أبوابها. غارقة بين الفوضى التي أحدثناها في البيت حتى يقرع جرس الباب لتداهمنا إحدى جاراتنا، تريد أن تستعير غرضا ما رفقة ابنها الذي لا أحبذ فيه شيئًا غير شكله من بين أولاد الحي المشاغبين الذين لا يكلون ولا يملون عن نبش المشاكل، خصوصا هو. فكم من قطة قام بالتلويح بها ومن ثم رميها، حتى أنه في آخر مرة قام بحمل قطة من الحي ورميها من الطابق الخامس لولا أن رآه والده الذي أبرحه ضربا... وفي إحدى المرات المشابهة كان يجُر خلفه ثعبانا قطع رأسه في نحيب حاد، تجمدت أمه من إثره في مكانها من الخوف ظنا منها أن الثعبان قد لدغ ابنها، وما إن اقتربت منه وتفحصته مرتجفة سائلة إياه ما به، أجابها قائلا أنه وجد أمعاء كلبه فأحضرها معه. ظنا منه أن الثعبان هو أمعاء كلبه...

كالعادة لم تأتِ أبدا في الوقت المناسب. أظنها جاءت لترى ما نفعل فحسب، فهاته عادتها... كل شيء كان مكوّما فوق بعضه، ومن حظي العاثر ذهبت لأفتش لها عن الغرض الذي تطلبه لكي تأخذ ابنها الذي لا يترك زاوية في البيت ولا يبحث فيها غير آبه لتهديدات أمه، تهم بالخروج بعد أن بدأت بسرد بعض الأقاويل المنتشرة حديثا في الحي على سمع أمي التي لم تكن آبهة بها كفاية، وابنها الذي كان يقوم بحركات غريبة في وجهه ويحرك حاجبيه

باتجاهي، مخرجا لسانه... كأنه يريد إغاظتي. لم أكترث له لغرابة طباعه تلك.

يخر جسدي مستسلما للتعب الذي عانقه، لأغوص في النوم مكللا بالكوابيس في تلك الأمسية. الساعة الثامنة والنصف مساء. مددت يدي باحثة عن هاتفي لكنني لم أتبين مكانه. اتجهت إلى الصالة باحثة عنه وعيوني شبه مغلقة. وجهت نظري المنكسر إلى والديَ اللذين كانا يتناولان طعام العشاء، متسائلة عن هاتفي بعد محاولتي الفاشلة في العثور عليه، ولكن إجابتهما جاءت بالسلب أيضا. أتصل به من خلال هاتف أبي ولكنه كان مغلقا، يبدو أن بطاريته قد نفدت وقد يكون مرميا في إحدى زوايا البيت. لم أكن في وضع يسمح لي بالبحث عنه أكثر، خصوصا أنه في صباح اليوم كان البيت يتسم بفوضى عارمة أجلت مهمة البحث عنه إلى الغد.

أتابع شاشة التلفاز التي كانت تعرض فيلما فرنسيا كلاسيكيا رومنسيا جميلا. نوعي المفضل كان رواية عالمية أعيد ترجمتها إلى فلم. كان البطل وسيما جدا ذا قصة شعر جميلة، والبطلة فاتنة كعادة كل القصص. يستلزم أن يتصف الأبطال بصفات الجمال الطاغي. تذكرت ضياء الذي يكون الآن في إحدى سهرات باريس الكعوب العالية، أحمر الشفاه الفاقع، عطورها النفاذة... أوف وما شأني أنا به. فليفعل ما يحلو له. لقد كان مختلفا جدا في الأسابيع الماضية. كان واضحا جدا، صحيح أنه لا يقول ما يفكر فيه مباشرة ولكنه يُلمح كثيرا، مما يضطرني للغوص في عدة شروحات كما أنا الآن. ترى ماذا أعني له؟ لماذا يصر دائما على إقحامي في عالمه؟ وأي مكانة أحتلها في قلبه؟ صديقة اعترضت

طريقه؟ أهو معجب بي يا ترى؟ لا، لا أظن ذلك فحياته متخمة بالنساء الجميلات. له سفريات كثيرة خارج الوطن وداخله. أمن المعقول أن الكل فشلن فشلا ساحقا في سرقة قلبه؟ لكن لم أكن أحظى بالجرأة الكافية لاقتناص جواب لهذا السؤال، ولا أعتقد أنني سأطرحه عليه. لم تراه سيلتفت لفتاة عادية من حي شعبي مثلي؟ ربما كان يريد أن يضمني لقائمة نسائه اللاتي عرفهن طيلة حياته، ماذا إن كانت مجرد فتاة للتسلية يمضي معها وقت فراغه؟ يتلو عليها أفكاره وما حدث في يومه، وكيف يمكن للشخص أن يشارك أسراره مع شخص لا يعطيه أهمية مؤقتة! ولكن المصيبة في أنك لا تعنين له غير شيء رخيص وحسب... سينفجر دماغي حتما من تسارع وتقلب الأفكار فيه، ولكن صدقا أريد معرفة ما أعنيه له، ولكن كان الأجدر والأنجع بي لو طرحت هذا السؤال على نفسي أولا؟ ماذا يعني لي كرجل؟ ربما لا يعني لي شيئا أو ربما هو كل شيء، لا، ليس إلى هاته الدرجة، كانت مزحة ثقيلة... إذا لماذا أفكر به الآن؟ وفي كل ثنايا وقتي أم أن قِلة تواصلي مع الجنس الذكري هي من جعلتني أود أن أملأ به وقتي؟ ربما ليس هذا هو السبب، ربما أنا معجبة به حقا، فعند أول يوم رأيته فيه بدا لي مثاليا للغاية كمن خرج من عالم الأحلام... ولكن نظراته إلي دائما كانت غريبة، كنت أحس أنه يتقصد لقائي، حتى أن تبريراته وأجوبته دائما ما كانت كثيرة، كأنه يريد القول لي أنه لم ينشغل بإرادته عني، أو كمن يريد أن يظهر لأحد قيمته عند الآخر. لمَ لا أخرج الطبيبة النفسية النائمة داخلي الآن لأفهم أين موقعي من كل هذا؟ انتقلت من مشاهدتي للفلم لثرثرة مع نفسي التي لم تنقطع

باحثة عن الإجابة ولكن الشيء الذي تيقنت منه أنني لا أريد أن أبقى على هاته الحال لا أدري ما إن كنت في الطريق الصحيح أو لا كمن يسير في طريق لكنه لا يدري الوجهة التي يقصدها، ليس المهم المسير وإنما الوجهة، فقد تكون تسير إلى الهاوية وأنت لا تدري، أو تكون في طريقك إلى جنة النعيم ولكن لا يوجد من يخبرك أين أنت ذاهب، ولا حتى إشارة تدلك، لكنني سأكتشف هذا بنفسي.

أنا لا أؤمن بالصداقة بين الرجل والمرأة، لا لأنها لا تنجح وما إلى ذلك، بل إنني أؤمن أن الرجل إذا عثر على المرأة المناسبة في حياته، هي من تكون له الصديقة والحبيبة والعشيقة والأخت والبنت والصاحب وكل شخص على وجه هاته المعمورة. فلا داعي لأن يختلق ضرورة وجود امرأة أخرى بحجة الصداقة أو العمل. استعملت كلمة المرأة لأنني أظن أن هاته هي التسمية المناسبة في مثل هذه الحالة. لماذا لم أقل زوجة؟ لأن كل أنثى يمكنك أن تتزوج بها، عدا المحرمات طبعا، ولم أقل شريكة حياة، لأنه يوجد الكثير من الأشخاص الذين تشاركهم حياتك والتي ستشاركهن، وكذلك لم أقل حبيبة، فكم من شخص متزوج بامرأة ليست هي نفس المرأة التي يحبها، ولكن لكل رجل امرأة لا بديل لها، لا غنى عنها ولا تنسى... كشعاع الحب الأول الذي نفقد معه عذرية قلبنا لأول مرة، نتذكره حتى نشيخ كالأم...

استيقظت في صباح اليوم التالي. أطرافي متشنجة واهنة بسبب نومي على الكنبة أثناء مشاهدتي للتلفاز ليلة البارحة. أعتقد أنها السمكة الثانية من أسماك الجوبي التي تنفق هذا الشهر. في خمول أحرك أطرافي المنهكة لأستقصي حقيقة الأمر، لأصعق

عندما رأيت أن هاتفي هو من غرق في حوض السمك. أصرخ منادية على أمي في دهشة وذهول من الموقف:

- أمي، من أوقع هاتفي في حوض الأسماك؟!

دنت مني ممازحة:

-اسألي السمك، فربما استعملته إحداها للاتصال بقريباتها في المحيط...

في استنكار مني أطالعها. أمي أنا لا أمزح.

-ومن قال لكِ أنني أمازحك؟ أنا لا أدري، ربما أوقعته بالأمس عندما كنت تنظفين البيت!

تغلف اللحظة صمت الصدمة التي كبلت أطرافي. أيمكن أن أكون قد أوقعته من دون أن أنتبه؟ ألهذه الدرجة كنت منهمكة بالتنظيف حتى لم أسمع صوت وقوعه في الحوض؟! لا. مستحيل. لا يمكن أن أكون أنا السبب. من غير المعقول. لا بد أنه شخص آخر. فوق الكنبة حاملة هاتفي المبلل الذي لم يعد يصلح لشيء الآن سوى ليملأ كيس القمامة، أخرجت بطاقتي من الهاتف وجربتها في هاتف أبي ولكنها لم تشتغل. يبدو أنها حتى هي قد تلفت، لقد مسح كل شيء الآن، حتى أرقام الأشخاص الذين أعرفهم. تعكر مزاجي منذ الصباح ليفسد يومي. بينما كنت أجالس أمي في المطبخ، وهي في غمرة انشغالها بإعداد طعام الغداء، قمت صارخة من مكاني:

- نعم إنه هو بالتأكيد.

تطالعني بتعجب:

- ماذا هل جننت بعد سقوط هاتفك في الماء؟

إنه ابن الجيران أمّي. علاء بالأمس عندما قدم إلى البيت هو وأمه أخبرتك أنه كان يرمقني بنظرات كأنه ينتقم مني بسبب شيء ما، هو من رمى هاتفي في الحوض، أنا متأكدة...

ترمقني بنظرة مستنكرة لتعقد أقواس حاجبيها وهي تطالعني:

- لا تقومي برمي أخطاء لا تعرفين صاحبها على أشخاص قد يكونون بريئين منها، وماذا إذا نظر إليك بتلك الطريقة، فالأطفال كلهم لديهم تصرفات غريبة وحركات أغرب، لا تضعي إثم أحد على عاتقك.

إذن، كيف وصل هاتفي إلى الحوض! قلبي يحدثني أنه هو صاحب هذه الفعلة، إذا أمسكت به فأنا أعرف كيف أتصرف معه، لا والذي يزيد الطين بلة أنني لن أتقاضى راتبي إلا بعد خمسة عشر يوما. أي أنني لن أتمكن من شراء هاتف جديد الآن.

أنهي أيامي المريحة الخالية من العمل، المليئة بالفراغ. أنام متى أشاء. أستيقظ متى أشاء، أرتدي ملابسي العريضة. أشرب قهوتي المرة في كل وقت، وأكوام الكتب التي أنهيت قراءتها أمام رأسي، أحيانا أنزل للتسوق وأحيانا أخرج لتجديد بعض الهواء في رئتي والتجوال خارجا...

يوم ربيعي جديد. تنزع الورود عنها قطرات الندى الرقيقة لتقبل الشمس خدها في إصباحة جديدة من إصباحات نيسان. غيوم بيضاء قطنية تغزو السماء، تشبه غزل البنات. هواء عليل يمسح عن قلبك غبار الأيام السيئة التي مررت بها. أستأنف عملي من جديد، في نظرات سريعة دون جدوى، كنت أرقب مرور سيارة ضياء من أمام المدرسة لاصطحاب نور ولكنني لم أره. يوم مليء

بالمعلومات التي تضطر لإعادة شرحها مرات عديدة لمن لم يفهمها أو لمن كان يتهامس مع صديقه في حديث جانبي عن آخر صيحات الموضة في الأحذية الشبابية أو الألعاب الإلكترونية الجديدة التي غزت الأسواق، أو تلك التي تنشغل في كل مرة بالالتفاف خلفها ظانة منها أن صديقها سيهرب...

عائدة أدراجي إلى المدرسة في ظهيرة ذلك اليوم، الشمس الحارقة تتكبد السماء، اقتنيت هاتفا وشريحة جديدين. ما يزال لدي حصة أخيرة أقدّمها عند تمام الثانية، أنهي بها يومي، صوت بوق سيارة يدق طبلة أذني، فابتعد عن الطريق ظانة أنها تريد أن تركن، ولكن صوته ما يزال يتردد على مسمعي، فألتفت لأتحرى الأمر لأرى سيارة ضياء خلفي. لوح لي بيده، ابتسامة كبيرة تملأ ثغره. كانت عيناه تلمعان كأن بهما وميضا، بدا أكثر وسامة بالثياب الرياضية التي كان يرتديها. أظهرته أقل من عمره وأخرجته من روتين الألبسة الكلاسيكية التي كان غارقا بها، باريس غيرت فيه شيئًا أم أنني أنا من تغيرت؟، دنا نحوي قائلا بنبرة لم يكلمني بها قط:

-أأنت بخير؟ قلقت عليك كثيرا. لمَ هاتفك مغلق؟ أحدث شيء؟ أصابك مكروه؟

أطالعه بتعجب، بيد أن أول ما وطئت رجله الأرض حتى هاجمني بطوفان أسئلته اللحوحة عن حالي. لم يتح لي الفرصة أن أقول له حمدا لله على السلامة على الأقل. بدا أكثر ارتباكا وهو ينتظر مني جوابا. يردف قائلا وسهام عينيه تطالعني:

- قولي ما بك؟ أأنت بخير؟!

كعادته يرمي بكل ما يريد قوله في وجهي دفعة واحدة. لا يترك لي مجالا للشرح، حتى أنني بدأت أفكر، هل حدث شيء فعلا لي ونسيت الأمر؟ في محاولتي لطمأنته وطرد غربان التساؤلات من على محياه، أتحرر من أسئلتي الداخلية وأجيبه:

- لا. لا تقلق. كل شيء على ما يرام. أخبرني أنت هل حدث شيء؟

أطبق جبينه في حيرة مما قلته كأنني زدت الأمر تعقيدًا. أردف قائلا وهو يطالعني بانكسار عينيه الغريب :

- كل شيء على ما يرام! ولكنني لست على ما يرام. لم أكلمك منذ حوالي عشرين يوما، وكلما حاولت الاتصال بك، أجد هاتفك مغلقا. أتفهمين ما تعنيه عشرون يوما؟!

فاجأتني ردة فعله. أجزم بأنه لم ينتبه لما قاله الآن. ابتسامة تطلع من وراء دهشتي بكلامه ذاك. كان منظرنا أشبه بأب يوبخ ابنته على تقصيرها:

- هاتفي غرق

- غرق، ماذا تقصدين بغرق!

- نعم لقد وقع في حوض السمك ولم أتمكن من شراء هاتف آخر حتى اليوم.

ما إن أنهيت قول جملتي حتى رفع رأسه إلى الأعلى وبدأ يقهقه عاليا، ثم أخذ يطالعني بطريقة غريبة قائلا:

- وأنا أيضا غرقت، هيا نذهب لتناول الغداء. لم أتناول شيئًا حتى الآن، أتيت مباشرة إليك... وضعت حقائبي في البيت وأخذت حماما وجئت مباشرة لرؤيتك من المطار.

أجبته بتعجب:

- ماذا؟!

- هيا أرجوك. لا ترفضي. لقد بقينا طويلا تحت الشمس. لقد بت أشبهَ بالخبز المحمص. هناك مطعم قريب من هنا. سنذهب إليه.

استغربت دعوته للغداء، ولكن الشيء الأكثر الذي استغربته هي جرأته في الحديث معي هذه المرة. بدا لي متحمسا، خائفا، مرتبكا، طوفان مشاعر مختلط ولكنني سرعان ما رفضت طلبه. معللة ذلك بأنه ما يزال لدي حصص لم أكملها. أردف قائلا:

- أعلم. ولكن الوقت ما يزال مبكرا على حصتك. لن نتأخر. سننهي بسرعة.

لم يترك لي مجالا للرفض ولا حتى للقبول، لتهرب من عزيمته المفاجئة، وماذا يقصد بأنه يعلم؟ في إشارة منه، يفتح لي باب السيارة، يدعوني للولوج إلى داخلها، ذلك المشهد الذي لم أره إلا في الأفلام، ولكنني الآن أجربه. ركبت سيارته لأول مرة وهو بمحاذاتي. بالقرب مني، يبتسم بسعادة. لم يخطر في بالي أي موضوع أتحدث فيه معه سوى أنني الآن في سيارة رجل غريب لا أعرف عنه سوى اسمه. التقيته منذ أشهر، والآن أنا في سيارته، والأدهى أنني سأذهب للغداء برفقته. يكسر برود الصمت الرهيب الذي كان يخنق المكان بقوله:

-إذا كيف أصبح حال والدك؟

-إنه يتماثل للشفاء الآن. الحمد لله.

- جيد إذن، ملاك!

-نعم

-أرغب في مقابلة والدك.

أطالعه بنظرات مستفهمة، متفاجئة جدا مما قاله ويقوله اليوم. ربما لن تتوقف زلات لسانه عن الانهمار اليوم. أتدارك كلامه ذلك قائلة:

- ماذا؟! ماذا تقصد برغبتك بلقاء أبي؟

- ها قد وصلنا، تعالي لنكمل في الداخل.

نزلنا من السيارة. أسير بمحاذاته تماما عند ولوجنا إلى المطعم. يبدو أن الكل يعرفه هنا. على الأغلب اعتاد القدوم إليه. صعدنا إلى الطابق العلوي، كانت الصالة كبيرة مليئة بالموائد الدائرية المغطاة بأغطية حمراء وهو أسوأ لون لديّ. يذكرني بلون الدماء، مما يجعلني مرتبكة وأحيل نظري عنه كلما وقع عليه. اختار لنا ضياء طاولة تطل على منظر بديع. قلت معلقة على المكان:

- لم أكن أعلم أن المدينة تبدو بهذا الجمال والسحر من هذا العلو.

- وأنا لم أكن أعرف أنك بهذا الجمال من هذا القرب.

تلبكت قليلا من كلامه، لحسن الحظ جاء النادل وأحضر معه كتيب الطعام، بالرغم من أن جسدي حاضر معه إلا أنني ما أزال أردد تلك الجملة التي قالها في السيارة. أخذ يقلّب صفحات الكتيب قائلا:

- اليوم ستجربين أكلا لم تتذوقي مثله في حياتك. لدي شاف بارع في إعداد الطعام، ساحر التوابل خصوصا الأكلات البحرية.

أشحت نظري عن الكتيب في تعجب أطالعه قائلة:

- ماذا تعني بأن لديك "شاف" بارع؟

- يمكنك القول بأن هذا هو مطبخي الكبير. أنا من أسست هذا المكان منذ ما يقارب الخمس سنوات.

- ما رأيك في السلمون؟ أترغبين أن أطلبه لكلينا؟

- كنت أود مشاركتك إياه، لكنني لا أحبه، رائحة السمك فظيعة.

- إذا أنت لا تتناولين السمك، لم أكن أعلم، حسنا اختاري ما تشائين وأنا سأختار شيئا غير السمك، أطالعه في تعجب:

- لماذا؟ ألم تقل أنك تحبه لتوّك؟!

- نعم، ولكن ألم تسمعي نفسك أيضا عندما قلت أنك لا تحبينه ولا تحبين رائحته؟

هز كتفيه وهو يطالع الكتيب قائلا:

- لا بأس. سأتناوله في وقت لاحق.

نظرت إليه قائلة:

- أنا آسفة.

راق لي تغييره لغدائه من أجلي، كأنه يقدمني على نفسه، فبمجرد علمه أنني لا أحب أكل السمك ألغاه نهائيا بعد أن فرغنا من تناول الطعام، أغازل فنجان قهوة متأملة المكان من بلور الزجاج المنفتح على السماء، على عكسه هو، الذي كان يتأملني، شعرت بعيونه تترصدني، ولعل هذا ما دفعني لأعلق نظري مطولا إلى الخارج هربا من نظراته التي كانت تربكني.

- ملاك

- نعم

- لماذا أنا هنا معك اليوم؟

- لأنك جائع!

ضحك كعادته. ثبت عيونه في وجهي ثم قال:

- لأنني أحبك

- هه، مزحة طريفة.

- لا أظن أنه موضوع يمكن المزح فيه

- أنت جاد؟!

- لا أنا ضياء

كنت أنتظر منه أن ينفجر في وجهي من الضحك ويخبرني بأنها مزحة، ولكنه لم يفعل. أشعر بالأدرينالين يتصاعد في جسدي. مستحيل. إنها صدمت حياتي. لم يسبق لأحد أن قالها في وجهي بمثل هاته الطريقة، حتى أنه لم يمهد لشيء، هكذا مباشرة قالها بدون أي مقدمات. لم أعرف كيف أسيطر على الموقف، فقط بقيت علامات الصدمة مرسومة على وجهي. لم أولِ الأمر أهمية كأنها مزحة.

حرك رأسه متعجبا: ما بك؟

- ماذا؟!

- نعم. وماذا في الأمر؟ أنا أعجبت بك منذ أول يوم رأيتك فيه. ألم تلحظي ذلك؟ لذلك رغبت في فتح موضوع علاقتنا بشكل جدي مع عائلتك، أرغب بشدة في أن تصيري زوجتي، طبعا إذا كنت لا تمانعين، أو لم يكن لديك شخص آخر في حياتك.

لم أجد نفسي إلا وأنا أقوم من على الطاولة كأنه وقت الانسحاب. يجب علي الهرب من هذا الموقف.

- شكرا لك سيد ضياء على دعوتك الجميلة على الغداء. أظنني تأخرت قليلا. علي الذهاب، أنا آسفة.

لحقني مسرعا، ممسكا بمرفقي ولفحات نفسه الحار يرطم وجهي قائلا:

- أنا آسف، يبدو أن الموضوع فاجأك. أنا لا أطلب منك شيئا. فقط فكري في الأمر جيدا. لا أريد منك أي إجابة الآن. بنبرة حادة قليلا أجيبه:

- فاجأني! أنت متأكد بأنك تريد أن ترتبط بي؟ لم يمضِ على تعارفنا سوى مدة قصيرة، بالكاد تعرفت فيها علي، والآن تطلب مني أن نرتبط هكذا بكل بساطة...

- لا. أرجوك لا تفهمي طلبي هذا خطأ. ما أعرفه عنك يكفيني. كنت أتتبعك. منذ أول لقاء بيننا أعجبت بك جدا، وفي الآونة الأخيرة أدركت أنني لا أستطيع العيش من دونك. شبح فقدانك يخيفني يمكننا التعرف على بعضنا أكثر. لا يوجد شيء يمنعنا. المهم أنك تعرفين أن طلبي شريف ويمكنك أن تقرري بعد أن تتعرفي علي.

6

هكذا مر شهر منذ هذا اللقاء. شهر كثيره منك وقليله منك أيضا كانت أحاديثك، تصرفاتك مثالية للغاية، فاتنة كجمال البدايات الأولى، كمن أعاد صبغ جدران روحه الباهتة. في هذه المدة سمحت لسمعي أن يتغنى بصوتك يوميا. كنت تثرثر كثيرا يا ضياء، تتكلم أضعاف ما أتحدث أنا، كأنك تريد إقحامي في حياتك من أول يوم فيها، أذكر يوم حزنت عندما أخبرتك أنني متبناة، وأن هؤلاء ليسوا أهلي الحقيقيين تأثرت جدا يومها وأخبرتني بأنك أنت هو والدي، وأنك ستحبني كأول طفلة لديك. كنت تعزف لحنا جديدا على قلبي. أظنك بت قلبي. لا أعرف أأكون قد أحببتك في هاته المدة القصيرة لأخبرك أنني أحبك أيضا في نفس المطعم الذي صارحتني فيه؟ أم هو مجرد إعجاب اعتدت فيه لطافة أول رجل سمحت له باقتحام حياتي في الأخير. بالرغم من كل هذا إلا أن فكرة الارتباط شكلت لي هاجسا كبيرًا. صارحتك بخوفي منذ البداية، ولكنك وعدتني بأنك لن تتركني أبدًا، وأنك سجين جيد. عندما سألتك ماذا تعنيه بكلمة سجين تلك أخبرتني بأنني أشبه السجن، سجن كبير وأسواري عالية جدا، وأنك سجين لا يمكنه مفارقة سجنه والهرب منه لأنك محكوم بالمؤبد داخله ولا يمكنك الخلاص من شبح عينيّ الفاتن. كنت تغسل دماغي يا ضياء في كل محاولة للفرار من شراكك كنت تسترجعني إليك بمهارة، كان اقتناعي صعبا جدا وكنت صبورا جدا، إلا أنني لا أزال مترددة، أخبرتني أنه لا ضير في المحاولة حتى نجحت في إقناعي.

جئت أخيرا لمقابلة أبي، وخطبتي منه رسميا. جهزت كل شيء من أجلك حتى إنني قمت بتنظيف البيت وترتيبه وأعددت الحلوى بنفسي واشتريت أخرى. حضرت كل شيء ليناسب زوجي المستقبلي. كنت سعيدة يا ضياء، كنت وسيما يومها، خجولا للغاية، مرتبكا. كنت أطالعك من الغرفة المقابلة وأنت تمسك ربطة عنقك في كل مرة محاولا التنفس فيها تتهرب من عيون أبي ومن صرامته التي كانت واضحة معك. تحاول اصطناع القوة ولكنك فشلت. كانت ابتسامتك ساحرة عندما كنت تنظر إلى وجه أمي. لقد أَحَبتْك كثيرا يا ضياء. الآن يمكنها التفاخر بين جاراتها أنها زوجت ابنتها التي طالما نعتوها بالعانس. أعجبتني كثيرا باقة الورد الجوري التي أحضرتها يومها، كانت باقة كبيرة تتوسطها وردة بيضاء، وعندما سألتك عن تلك الزهرة القابعة في المنتصف أخبرتني بأنها تشبهني. غارق بي كغرق وردة الجوري البيضاء بين الورد الأحمر. كنت متوترا جدا، بعد انصرافك من بيتنا اتصلت بي بعدها مباشرة وأخبرتني أنني كنت فاتنة جدا، ولكنه ينقصني شيء واحد، هو أن تضع خاتمك في يدي. أخبرتني بأنك كنت ترغب في أخذي معك إلى بيتك، قلت بأن أبي شخص قاس وصارم جدا، أتظنين أنه سيوافق علي؟، أجبتك يومها في سخرية ربما! أجبتني بتهكم: سيفعل، سيفعل... ولكن انقلب كل شيء بعد ذلك اللقاء يا ضياء تحطم وتلاشى كل شيء. لقد تحققت نبوءتك. لم يرضَ أبي بخطبتك لي. قال بأنك لا تناسبني ولم يقل شيئا آخر، سوى أنه سيتواصل معك ليخبرك بالأمر، وأنه لا يريدني أن أتواصل معك مرة أخرى. أحس بأنني لا شيء. أشعر بسوء كبير. هناك فراغ كبير

يجتاحني كمن أحرق غابة داخلي. أنا أتألم كثيرا ولا أحد يشعر بي الآن سوى جسدي. كانت الظلمة تتملكني. بت أشعر أنني خسرت كثيرا وما زلت سأخسر يا ضياء. انتهى كل شيء بكلمة واحدة من أبي. هل أقنعك رفضه لهذه الدرجة حتى تهجرني؟ هو لم يسألني فقط أنهى الموضوع من جهته وأنت تقبلت الموضوع على ما يبدو. لم تتصل بي منذ ذلك الوقت يا ضياء. مر أسبوع وأنا على هاته الحال، أطالع شاشة الهاتف الكئيبة. بريدي الإلكتروني.. أي شيء منك كان سيريحني حتى انصياعك لرغبة والدي كانت ستريحني، فقط إن واجهتني لا يليق بك الانسحاب هكذا.

يومها كنت في غرفة المعلمين. كادت ذرات الهواء تخنقني وكأنه مسموم، شهقت بقوة يومها كأنني أحاول إخراجك من رئتي. لقد كنت مضافا إلى هوائي يا ضياء، أفزعني رنين هاتفي لما اتصلت. استغرقت أسبوعا كاملا كي تهاتفني، مئة وثمانية وستون ساعة كانت كفيلة لأن تشككني فيك، انقطع الاتصال... كأن الهاتف أصبح ثعبانا، لا أستطيع لمسه. عاودت مهاتفتي مجددا. لماذا لم تظهر لي إصرارك قبلا؟، لم أكن جاهزة بعد لتبريراتك ولسماع أسفك من وراء سماعة الهاتف، فقد دعني أتقبل ذهابك. في هدوء رميت الهاتف بغضب في الحقيبة كأنني أرميك معه، وخرجت من القاعة. كانت هناك الكثير من الأسئلة تجوب داخلي، ولكنني لا أستطيع طرحها على أحد سواي. بقيت بيني وبين نفسي تحرق تفكيري، تتلفه. وجدت نفسي غير باحثة عن الهواء. أنا أبحث عنك، كنت أمام المدرسة، نسيت بأنك تعلم أوقات عملي ومتى أنتهي منه. طبطبت على جراحي المتقيحة وجمعت القلة القليلة

التي وجدتها من الشجاعة لأكمل طريقي غير مبالية بك، ولكنني كنت أسير نحوك لا غير، رمقتني بتلك النظرة يومها من بعيد. كنت متكئا على سيارتك، وعندما رأيتني سارعت في استقامة طولك. نظرت نحوي قابضا يدك اليمنى بقوة هذه المرة. كانت عيناك لا تشبهانك أبدا. كعادتها كانت منكسرة، فيها نوع من الخيبة مليئة بالغضب. يومها لحقتني مهرولا. أمسكت يدي بعنف. تركت قبضتك على ساعدي علامات أرجوانية ولكنك انتبهت لنفسك وتركتني معتذرا. لماذا أمسكتني بتلك القوة؟ أنت أساسا فقدتني. لم أكن أجيد أبدا النظر في عينيك يا ضياء. كنت أنظر نحو الأرض مباشرة بالرغم من أنني كنت بحاجة لأن أضمك بقوة. لم أكن أرغب في أن ترى ضعفي جليا في عينيّ.

- يداك باردتان.

أفلتت يدي من بين كفيك ولو كان علي ما فعلت، كنت تستنشقني. رفعت وجهي إليك قائلا: أنا آسف.

- آسف... حقا، على أي شيء تتأسف الآن؟! قُلتُها بغضب.

- لم أكن الشخص الذي يرغب به والدك، لم يرَ فيَّ الرجل الذي يستحقك...

حديثك كان كالمرهم يخفف الألم لكنه لا يعالجه.

-تعالي. سنذهب إلى مكان هادئ ونتحدث.

- لا. لا أريد أن أجلس في أي مكان، ولا رغبة لي في الحديث.

- حسنا، لن نتحدث، سنبقى معا فقط. أرجوك، لن نتحدث في الشارع. تعالي واشتميني قدر ما تريدين. سحبني من يدي نحو سيارته. شزرني بعينيه لأدخل السيارة طواعية قبل أن يجبرني على

ذلك، وأغلق الباب بعنف. أرعبتني عصبيته تلك. أول مرة يثور في وجهي. قاد السيارة في غضب. كنت خائفة أن يتسبب بحادث لنا سألته أين ستأخذني ولكنه لم يجبني. أرعبني سكونك المخيف ذاك، أحسست بأنني غبية وساذجة لمطاوعتي رغبتك في ركوب سيارتك على صوتي مجددا.

ضياء أين ستأخذني؟

نظر نحوي في غضب. كانت عيناه تفيضان غيظا.

- لا تخافي. ثقي بي. أنا لن أغتصبك.

نزلنا من السيارة. كُنتُ أول من نزل لأتخلص من غضبك ذاك وكنتَ أول من جلس، جلستُ بقربك محافظة على مسافة بيننا ولكنك أبيت إلا أن أقترب. أنا أتعرف على نصفك الغاضب. الآن أنت مرعب. هكذا كنت تفرك يديك كثيرا، وتتنهد كثيرا. كنت أخاف من أن تقدم على شيء سيئ، اتخذنا من الصخور مكانا للجلوس. كنت أنظر إلى المياه وهي تندفع نحوي وتنساب بين أصابع قدمي. لم أتحمل صمتك أكثر ولا حتى صمتي فكنتُ أول من بادر في السؤال:

-لماذا أسبوع؟ هل الأمر يحتاج إلى كل هذه المدة؟!

-أنا جبان، في كل يوم كنت أشاهدك فيه تتلاشى قوتي وتلك الكلمات التي كنت أرددها قبل النوم أيضا تختفي، اكتشفت أنني مدمن عليك، لا أستطيع التخلي عنك وإقناع نفسي أن هناك شخصا آخر يخرجني من جنتك ويرمي بجثتي إلى الهاوية، لكنني اكتشفت أمرًا آخر.

ثم سكَتت قليلا:

- ما هو؟

- الأزرق يليق بك كثيرا.

- ابتسمت منتصرة قائلة: كنت تراقبني؟

- لا. بل كنت أتنفسك.

- ولكن لا يمكن أن....

- يمكننا. سأعيد فتح موضوع زواجنا مع والدك. سأقنعه وستكونين لي ولن يبقى أحد يعترض طريقنا...

واضعا يده فوق يدي أجيبه بصوت يكاد لا يسمع، لا أود قولها. أخشى من أن تتحقق ولكن أبي مراسه صعبٌ للغاية، ومن المستحيل أن يغير رأيه بسهولة. دنا مني وأخذ يداعب شعري بأصابعه، كأنها الإجابة الوحيدة عن رأي أبي.

-أنا سأبقى معك. لن أتركك...

كالعادة تشعرني بأنك أكثر شيء ثابت إن تعلقت به لن أقع. قولك بأنك لن تتركني بات يرعبني جدا يا ضياء. لا يمكنني الاختيار بينك وبين أبي أبدًا، وإن حدث ذلك فأنت تعلم أن أبي لا يمكن مقارنته بأحد، أخشى ذلك فعلا يا ضياء. أسندت رأسي المليء بالهموم فوق قلبك. عدْتَ لثرثرتك المعتادة كأنك تثأر من الأسبوع الذي لم تكلمني فيه. تريد أن تمسح عني الألم ولكنك لا تعرف كيف.

مر وقت طويل منذ تلك الحادثة. حوالي شهر ولا جديد يذكر. كنت عندما تتصل بي أتأكد بأنك ما تزال ترغب بي، فأفرح. أظنني تعلقت بك أكثر بعد أن شعرت أنني سأفقدك، كنت في البيت وحيدة. كان ذلك اليوم عطلة. رن جرس الباب. ذهبت لأفتحه ظنّا

من أن أمي قد عادت من حفل ختان أحد الجيران في الحي، ولكنني كنت مخطئة. أحد كوابيسي تصر على الظهور. لقد مر زمن منذ آخر لقاء بيننا. لماذا جئت؟ وكيف تمكنت من معرفة محل إقامتي؟ ملامحه ما تزال قوية بالرغم من أنه تقدم في العمر كثيرا، فقدت بعضا من شعر مقدمة رأسك يا أبي. بات وجهك مجعدا ولكنني ما أزال أذكر تلك النظرة القاسية التي رمقتني بها في سن العاشرة، كما أنك بت نحيلا نوعا ما، ما بك؟ ألم تقلع عن التدخين بعد؟! كنت أود أن أسألك أسئلة كثيرة، ولكن صدقني لم يعد الأمر مهما أبدًا. صعقتني الصدمة. أطلت النظر في وجهك.

- ماذا تفعل هنا؟

هذا ما استطعت أن أمنحَك إياهُ من المرةِ الأولى التي رأيتُك فيها.

نظرت في عيني بقوة وأشَحْتَ بِجسَدِي عن الباب قائلا:

- أنت تتواقحين كثيرًا يا فتاة. كيف يمكِنك أن تتحدثي إلى والدِك بهذه الطريقة الفضة؟ احترمي على الأقل كبر سني. كيف تريدين أن تتزوجي وأنت بهذه العقلية؟، وكيف يمكن لزوجك أن يحتملك هكذا؟... أين علي؟

رمى بنفسه على الكنبة كأن البيت بيته. شرع على يديه فوقها يتصرف وكأنه في بيته.

- اذهبي وأخبري كوثر أنني هنا.

- ليست هنا، في إجابة مقتضبة مني.

أخذ ينادي عليها بصوت عالٍ كأنه لم يصدق ما قلته له.

- أخبرتك أنه لا يوجد أحد غيري في البيت. ماذا تريد؟ لماذا تلح على لقائهما؟ قلتها بغضب بنبرة حادة مبينة له حدوده.

- كيف لهما أن يتركاك في البيت لوحدك؟ متى يعودان؟

كنت سأضحك فعلا كما لم أضحك قبلا. منذ متى بات أمري يهمك؟ ولكنني قتلت ضحكتي في حنجرتي قائلة في نوع من الاستهزاء والاستخفاف مما قاله:

- لا أدري، والآن، هلا أخبرتني رجاء ماذا تريد منا وما سبب قدومك إلى هنا. على حد علمي أنك لم تغادر تلك القرية أبدًا.

- أحضري لي كوب ماء، بعدها سأخبرك عن سبب مجيئي.

أنظر إليه بتعجب. يشير إليّ أن أجلس بعد أن أنهى كوب الماء الخاص به. يعقد حاجبيه ويعلق نظره بي قائلا:

- جئت لأناقش أمر زواجك مع علي.

أتنتفض في غضب كأنني صعقت بالكهرباء.

- ماذا تناقش؟ ماذا؟ أتظنني أحد خرافك لتبيعني، ومتى كان لك الحق لتتدخل في حياتي؟ إذن، قطعت كل هذه المسافة سدى. يمكنك العودة من حيث أتيت. أنا لن أقبل بزواج يكون لك يد فيه.

- ومنذ متى كان لعلي السلطة على رفض العرسان الذين يتقدمون لك؟

بدأت أصواتنا تتعالى. لا أحب مناقشتك معي في هذا الموضوع. أساسا ارحل. لقد أخذت الإجابة مني وأمي وأبي لن يكون لهما رأي يخالف قراري. أنت تتعب نفسك فحسب.

- ولكن ليس هذا ما سمعته؟

- ماذا تقصد؟ ماذا سمعت؟ في حيرة يزرع فيّ الشك. أسأله:

- أنا أرى بأن السيد ضياء مناسب جدًا لك. يمكنك أن تفسري لي سبب رفضه من قبل علي؟ ولماذا لم يعلمني أحد بهذا؟

كانت حروفه تلك تصعقني. تخرج ببطء شديد. أعقد حاجبي في دهشة. أضطر لأجلس بعد أن أوقفتني كلماته، في إشارة مني أحرك رأسي وعيناي شاخصتان فيه.

- من، من الذي أخبرك؟!

يجيب ببروده المعتاد:

- وأنت ما شأنك؟

أطالعه بنظرة قاسية مليئة بالتحدي.. أمي أخبرتك؟ صحيح!

يحرك رأسه علامة للنفي.

- إذن أبي؟ صحيح! أجبني؟

- عريس الغفلة

- ضياء؟! في صدمة

غير معقول. ضياء لا يمكن أن يقدم على شيء كهذا دون الرجوع إلي.

نظر نحوي بسخرية معقبا على كلامي.

- ولم لا يمكنه فعل ذلك يا عزيزتي؟ ضياء فقط تدارك الأمر لأنه أخطأ يوم طلبك من شخص غريب. يمكنك أن تفرحي الآن، وأن تعتبري نفسك مخطوبة له رسميا.

- كفاك هذيانا. اخرج من هنا. هيا.

نظر نحوي باستهزاء مديرًا وجهه عني، راسمًا ضحكة بلهاء على وجهه، وأنا أثور غضبا. دخلت إلى غرفتي. اتصلت به مرتين بدون جدوى. عدت إليه إلى الصالة. ما يزال جالسًا ببرود.

- لديك هاتف؟

في إشارة إليه مادة يدي نحوه:

- أعرني إياه.

قدم لي هاتفه. دلفت إلى الغرفة مسرعة. بدأت أقلب قائمة المكالمات المسجلة على هاتفه، وبالفعل وجدت رقم هاتفه مسجلا عنده. اتصلت به. تأخر قليلا في الرد ولكنه في الأخير أجاب بنبرة حادة:

- ضياء.. ما هذا الذي فعلته؟ تريد أن تجلطني؟ كيف لك أن تدخله في الموضوع؟

تنحنح في البداية وكأنه صعق لما عرف من المتصل، ليردف قائلا، محاولا تصنُع الهدوء ليقنعني برأيه:

- لم أجد سوى هذا الحل أمامي، أساسًا هو والدك، ماذا يعني؟ لم أخبر شخصا غريبا. هو يظل والدك على كل حال.

- ضياء، أخبِرهُ أن ينصرف حالا قبل عودة أهلي.

- أنا آسف، ملاك، ولكن لا يمكنني أن أخسرك.

أجيبه بعصبية. من قال لك أنك ستخسرني؟، ولكنك إذا استمريت بهذا صدقني ستخسرني فعلا هذه المرة. إذا لم تفعل هذا تأكد من أنه آخر يوم تسمع فيه صوتي، سأنهي كل ما بيننا، أنا أعدك. سأكون أنا من أعارض هذا الزواج حتى لو وافق الجميع...

كان صوته مترددا مرتبكا ضائعا في كلماتي، متيقنا بأنني لا أمزح بخصوص هذا الأمر ليردف قائلا:

- لا. لا يمكنني، كما أنه لا يمكنك أن تتخلي عني بهذه السهولة. لم لا تفهمين أنني أقوم بكل هذا من أجلنا، من أجل أن نكون سويا، والدك علي لن يعارض على قرار والدك.

زادت نبرة صوتي حدة.

- ضياء، أنا لا أمزح، أقسم أنني لن أتردد أبدًا في الانفصال عنك إن لم تخبره أن ينصرف الآن...

أعطيته الهاتف. كان يطالعني بازدراء. أمسك بالهاتف. كاد قلبي أن يقتلع من محله، هز رأسه موافقا على ما أخبره به ضياء على الهاتف، وهم بالخروج ثم استدار نحوي قائلا:

- أنتِ غبية، وستدفعين ثمن غبائك هذا غاليا.

كنت أراقبه من النافذة. أتأكد من خروجه من الحي. أشيعه حتى سقطت أرضا. أصيح بحرقة، لقد تسببت في أذيتي يا ضياء جدا، كيف يمكنك أن تقحمه في حياتي مرة أخرى؟.

لم أنم تلك الليلة يا ضياء. انتابتني حمى شديدة ليلتها، كانت أسناني ترتطم بشدة، أطرافي متجمدة، لم أستطع التوقف عن البكاء، آلمني جدًا تفكيرك القاسي هذا، آلمتني أنانيتك في الحصول على ما ترغب به بدون حساب للعواقب المترتبة على أفعالك. لعنتك ألف مرة في تلك الليلة. كانت رسائلك كثيرة ليلتها، لم تتوقف عن الاتصال بي، استمر الهاتف بالرنين حتى نفذت بطاريته. انقطعت عن المدرسة في اليومين التاليين، شعرت بأنك تستغل أوراقي التي كشفتها أمامك. شحوب وجهي كان واضحًا للجميع. أتيت متأخرة في الصباح كي أتجنب لقاءك، وهكذا بقيت لليومين التاليين. أسبوع كنت أتجنب فيه لقاءك بعدما كنت أرغب في لقائك بسبب أو بدون سبب. لم أعرف بأنك قد علمت بمزاولتي للعمل، ربما نور هي من أخبرتك، وربما شخص آخر، بات تدخلك في حياتي بدون علمي يرعبني يا ضياء، خططك التي

تجهزها في الخفاء من ثم تتحجج بأنها لصالحنا من أجلنا، ترهقني. بات حبك لي يرهقني، بت شخصا خطرا يا ضياء. كنت تنتظرني خارجا. جئت لي من على فورك، لم أحتمل أن تلمسني، كنت أتهرب حتى من النظر في وجهك. باتت أنفاسك تخنقني، قلت بأنني أُكبر الأمر وأضخمه وأنني ضيعت علينا فرصة ذهبية ليقتنع والدي، أنت لم تعتذر مني حتى. أخبرتك أنه من الضروري علينا أن نراجع علاقتنا هذه، أظننا فعلا لا نليق ببعض، غمرت وجهي في صدرك كأنك تريد أن تدفنني فيه. تكلمت كثيرًا. أخذت تُبرِر لي فعلتك وتعتذر بشدة. أخبرتني أنه لا يمكنك أن تتركني. لا تتصور حياتك بدوني، أنك أخطأت عندما لم تستشرني في الأمر، وأنك لم تتوقع ردة فعلي أنها ستكون بهذه الطريقة، لا بل توقعتها يا ضياء، لذلك لم تطلعني على الأمر منذ البداية. كنت أرجوك أن تذهب وتتركني لوحدي. أنت أخبرتني حينها أنه لا يمكنك، أن أسمح لك بالبقاء معي، ستمنحني الوقت الكافي لأصفح عنك، أنك أخطأت، أنك وغد، لم تكن تقصد أن تسبب لي الألم.

تركته يدخل سيارته ويهم مغادرًا، كنت أشعر بمرارة كبيرة في حلقي، خطواتي كانت صغيرة قريبة من بعضها، تجاوزني بسيارته بسرعة، تسارعت دقات قلبي ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أقع أرضًا، أفقت في غرفة بيضاء شاحبة، إبرة المصل مغروزة في وريدي، كانت باردة على خلاف اليد الأخرى التي كانت دافئة جدًا. كنت ممسكا بها، كانت عيناك محمرتين، منتفختين، ووجهك متشربا للصفرة، رفعت وجهك مخاطبا إياي عندما أحسست باستيقاظي:

- معك حق. يمكنك أن تتركيني، أنا سيء فعلا. كيف لي أن أفعل هذا بك؟ ولكن، ماذا أفعل؟ أنا أحبك، وكل ما فعلته كان لهذه الغاية، لم تفعلين كل هذا بنا؟!

يضم يدي بكلتا يديه واضعا إياها قبالة ناظريه. كانت دموعه حارة تسقط على السرير. قبلها بحرقة ثم وقف. كانت قامته منكسرة.

- لقد اتصلت بأمك من المستشفى. سيأتون بعد قليل.

قال ذلك بينما كان يهم بالرحيل.

لماذا يا ضياء؟ لماذا تتسبب بكل هذا الألم لنا؟، لماذا تصر على أن تحصل على ما ترغب به بأبشع الطرق؟ تختار الأصعب على قلبي وأوجعها، لا تحسب لي أي حساب كأنني غير موجودة. يكفي أنك أنت من تريد، تخطط وتنفذ ويجب علي أن أتفهم نواياك الحسنة، وأن كل شيء من أجلي. أنت تشبهه كثيرا يوم تشبث بزينب مقابل أمي، أمي ماتت وحيدة بدون حب وها أنت تتمسك بي مقابل عائلتي. لقد أخبرتك سابقا أن لا تجعلني أختار بينك وبين عائلتي. كأنني كنت أعلم أنك ستفعلها وها أنت تفعلها الآن. جاءت أمي وأبي في قلق كبير. كانت تبكي بحرقة قبل أن تراني. وبعد أن رأتني تتحسس يدي بهدوء وتطالع جسدي المنهك الذي تشربه السرير. خرجت في تلك الأمسية عائدة للبيت. رأيت سيارتك خارج المستشفى. أنت لم تغادر بعد، كنت تدخن داخل السيارة ولما لمحتني سارعت لرميه في ارتباك. على الأقل ما زلت تتذكر كرهي لبعض الأشياء.

كنت أصد كل محاولاتك للاقتراب، كنت ترسل لي العديد من الرسائل في أوقات متأخرة من الليل، حتى أنني كنت أجزم أنك لا تنام الليل بطوله. تسجيلاتك الصوتية تلك كنت تتأفف فيها كثيرا ولا تجد ما تقوله. كنت بعيدا جدا يا ضياء، أخبرتني بأنني أولي الأمر أهمية بالغة بسبب كرهي الشديد لوالدي، معك حق يا ضياء، أكرهه بمرارة، أكره تخليه عني، أكره أذيته لأمي وأكرهني جدا لأنه والدي، وأكرهك لأنك تواصلت معه بالرغم من أنك تعلم رفضه لنا. ماذا أعطيته حتى رضي أن يأتي ليناقشنا في موضوعك؟ لا أظن أنه كان سيكترث لك لو لم تقدم له شيئا، نفسكما شريرة، جعلتماني سلعة لتفاوض، أفكر في الانفصال عن كل ما يربطني بك، أن أستقيل من المدرسة وهذا ما سأفعله غالبا لقد فقدت الثقة بك يا ضياء، وكيف سيستمر الحب بعد غياب الثقة؟

قلبي منقبض للغاية. استيقظت فزعة هاربة من كابوس بشع. كنت أنا وأمي في البيت لوحدنا. رن هاتف أمي. كان فوق الطاولة. تناولت الهاتف. لمحتُ نظرة الاستغراب تلك عندما كانت تطالع شاشته. بقي نظري معلقا بها. لا أدري لم ولكنني كنت أشعر أن هناك شيئًا ما يخصني. أشحت نظري عنها لبرهة حتى أفزعني سماع صوت جثتها تتهاوى فوق الأرض كأوراق الخريف. لم تستغرق وقتا لتمتلئ عيونها بوديان من الدموع. عيونها شاخصة معلقة في الهواء كأنها تنظر إلي لكنها لا تراني.

- والدك تعرض لحادث.

أطالعها بعد أن أوقفتني الصدمة. أحاول رفض كل ما تحاول توصيله لي نظراتها الميتة.

- أهو بخير؟! أمي...
- مات

كسرتني وفاة والدي. عدت إلى الوقت الذي ولدت فيه، يومها كنت يتيمة والآن أنا كذلك. أجرب شعور اليتم مرتين. لم أشعر بأنني يتيمة بغياب والدي الحقيقي ولكنني أشعر به الآن، تعرض أبي علي إلى حادث تسبب في وفاته مباشرة حتى قبل وصوله إلى المستشفى... كان صعبا علي جدا أن أصدق أنك بت غير موجود، ولكنني عندما شاهدت جثتك هامدة في المشفى تأكدت أنك تركتنا فعلا. وجهك كان شاحبا وشفتاك مزرقتين، كنت باردًا جدا يا أبي. كان وجهك مغطى بالكدمات والخدوش من الحادث... كنت الأمان بالنسبة لي في هذه الدنيا ولكنك الآن بت أحد كوابيسي المفزعة التي تنغص عليّ سكينتي، وجهك الدامي ذاك يحاصرني حتى بعد انتهاء العزاء. عاد كل أقاربك إلى بيوتهم ولكنك ما تزال تزورني كل ليلة. أنت لم تتركني. استغربت من عدم مجيء أحلام للعزاء. كنت أرغب في أن تأتي، أن أعانقها بقوة وأبكي على كتفها، أن تطبطب على كتفي وتؤنسني، لم تأتِ لتعزي أختها بالرغم من قدوم خالتي وزوجها، وكريم أيضا جاء برفقتهم. سألت عن سبب غيابها فردت خالتي مسرعة كأنها خائفة من أن يسبقها أحد إلى الإجابة. قالت بصوت خشن متردد وعيناها تتهربان من سؤالي كمن يرغب في إخفاء الحقيقة.

- إنها مريضة قليلا، كما أنه لا يوجد من يعتني ببناتها في غيابها كما تعلمين، ولكنها ستأتي في الأيام القادمة.

لم ترحني نظراتها تلك ولا حتى ترددها ولا لهجتها في الكلام معي، كأنها تمنت أن لا أسأل عنها أبدًا، رغبتها اللحوح كانت ظاهرة في غلق الموضوع بسرعة. أغرقتني إجابتها تلك في طوفان من التساؤلات والشكوك والوساوس، تمنيت لحظتها أن لا يكون قد أصابها مكروه، حتى أنه لا يمكنني الاتصال بها لأنها لا تملك هاتفا، ففي العادة عندما أتصل لأطمئن عليها أتصل على هاتف زوجها الذي أقرف محادثته.

البيت موحش جدا في غيابك يا أبي. بقينا فيه لوحدنا. وحدتنا هذه كانت رهيبة جدا، لا تزال رائحته تملأ المكان، أمي مريضة جدا بك يا أبي. كنت آخذها في كل مرة للمستشفى من أجل أن ينزل ضغط دمها، كنت منهارة كمن أغلق الضوء علي وأجبرني على إكمال حياتي في العتمة كل قصصك، كل أحاديثنا لا تفارقني البتة. تركني محترقة من دونك، كيف لسيارة أن تدعسك بتلك البشاعة؟! وتكون بتلك السرعة؟ في حي ضيق قام بدعسك وهرب... أي وحشية هاته وأين ضميره؟ أيستطيع أن ينام ليلا وفي رقبته معلق دم شخص آخر؟ انتهى العزاء، ولكنه ما يزال مستمرا في بيتنا. أنا على أسوإ ما يرام، لا أدري أيهما إيلاما، أبي الذي يفترش التربة الآن أم أمي التي تفترش الأحزان، لا أدري من أحسن؟ ميت على قيد الحياة أم حي على قيد الوفاة. صحيح أن أبي توفي ولكنه حي في أرواحنا، ولكن ماذا عن أمي التي لا تحرك ساكنا منذ وفاته؟ وأي دموع ستشفي غليلها وتطفىء لهيب نيرانها وغربتها الجديدة؟...

مر أسبوع ولم يتغير في حالنا شيء، كانت أمي توظب أغراض أبي وتضعها في صناديق كرتونية من أجل أن تتبرع بها لإحدى

الجمعيات، فقد جرت العادة أن أغراض الميت تلحق به صدقة عليه، ولكنها لم تنس أن تحتفظ بشيء يخصك تتذكرك به. صَدِق أنني لم أتقبل خبر موتك حتى الآن، ما زلت أسمع شبحك ينادي عليّ فألتفت فلا أرى سوى شبح صورتي يطالع الفراغ خائبا خاسرا. عثرت على هاتفك وساعتك وخاتم زواجكما الذي أعطو لنا في المستشفى، أشعلت هاتفك وإذ بي أرى رقم ضياء مسجلا كآخر متصل يومها، لماذا تجعل نفسك حلبة لشكوكي دائما؟ أرعبني صوت جرس الباب، حينها حملت جسدي المنهك بصعوبة... خطواتي متثاقلة... في البداية ظننته أحد الجيران أو أحد أقارب أبي لم يحضر العزاء، أو ممن أراد الاطمئنان على أمي، ولكن ظنوني كانت خائبة كلها، كان واقفا على الباب مرتديا قميصا أسود، شاركه في ذلك لون أحزاني، حمل في يديه باقة من الورود البيضاء، إنها نفس الورود التي أحضرها يوم خطبتي ولكن اللون اختلف هذه المرة كما اختلفت المناسبة أيضا، رآني في أسوإ حالاتي، فاجأني قدومه كثيرا لأنه في هاته المدة الأخيرة لم أتواصل معه البتة. كنا شبه منفصلين، بقيت أحدق فيه مطولا كأنه زاد على ما بي. دنا مني، غمرني بعناق وهمس في أذني مربتا على وجعي:

- عظم الله أجركم

رجعت بعض الخطوات إلى الوراء هاربة منه ومن وقع كلماته التي كانت قد أحيت جروحي التي لم تلتئم بعد. بللت دموعي قميصه وهززت برأسي صعودا وهبوطا ضامة شفتي إلى بعضهما البعض، كأنني أشكره على تعزيته، ولكن أي عزاء يمكن أي يوفي الميت حقه. سلمني الورد ودخل غرفة الجلوس. ذهبت لأخبر أمي

بأمر قدومه، هي التي كانت مستغرقة في أحزانها. جلسنا ثلاثتنا رفقة فناجين القهوة في جلسة بائسة. كل ما كان يشغل تفكيري تلك المكالمة التي تحيط بها غربان التساؤلات، لم يشأ المكوث طويلا، فبمجرد أنه قام بواجب التعزية خرج على الفور، أغرقها بكلمات الولد البار بأمه، رافقْتُهُ إلى الباب، اجتمع فضولي وخوفي معا لأفصح عمّا يجوب داخلي مباشرة بدون مقدمات:

- لماذا اتصلت بأبي ذلك اليوم؟

تلفت نحوي متعجبا. أي يوم تقصدين؟!

- اليوم الذي خسرت فيه أبي، لقد وجدت رقمك مسجلا على هاتفه، لماذا اتصلت به؟!

أَرَدْتَ التهرب من الموضوع قائلا :

- أنت متعبة الآن، لا يهم، سنتكلم في هذا لاحقا.

- لا يستدعي الأمر مرة أخرى. يمكنك إخباري بذلك الآن...

لم أخبرك حينها أنك أنت من كنت تتعبني، ثقتي التي بترتها هي من تتعبني الأن يا ضياء

نظر نحوي باستغراب قائلا:

.وما الأمر الذي يجعلني أكلم والدك فيه غيرك أنت

هززت رأسي نحوه في إشارة مني بأن يواصل حديثه، استرسل في حديثه قائلا:

- لم يحدث شيء على الإطلاق، سوى أنه بقي مصمما على رأيه.

ذهب وترك لي العديد من الأسئلة تجوب داخلي، مانحا إياي أجوبة مقتضبة، مختصرة، كما أنني لا أشعر بالراحة البتة... كل شيء بات مؤلما، حتى جدران البيت كانت مخيفة وشديدة البرودة.

لم تعاود أمي تلك الأزمات الصحية ولكنها طول الوقت كانت شاردة ولا تكلم أحدا. وضعها أرقني كثيرا. كنت أرغب في إطالة عطلتي المرضية، على الأقل عندما أخرج لا يكون بالي مشغولا عليها، ولكن بالرغم من كل هذا كنت أخوض حربا مع الأرق دوما، وذلك بسبب الشخص الذي كان سبب راحتي، لم يمض يوم بعد وفاته إلا وجاءني في الحلم. يبدأ كل شيء بحلم وينتهي بكابوس. أرهقني الأمر كثيرا. هو غير مرتاح في قبره، لذلك قررت الذهاب إليه اليوم لأقرأ على قبره الفاتحة وأدعو له، وفي طريقي أخذت معي فتيلة أغرسها على قبره لتفوح منها رائحته.

بعدما أفرغت ألمي ودموعي على تراب قبره وشكوت له حالي سرت عائدة إلى البيت... لمحت ذلك الزقاق الذي دعس فيه وفي كل مرة تجوب في خاطري مئات التساؤلات حول الحادث، لا يمكنني تصديق أن ما حدث صدفة، لذلك قررت الذهاب إلى أحد جيراننا، الذي كان معه وقت الحادث. كان صاعدا إلى بيته قادما من المسجد. استوقفته قليلا من أجل أن يعيد قص ما حدث علي، لأنني عند سماعي لخبر وفاة أبي تناسيت كل شيء. الآن فقط انجلت عني تلك الغمامة التي كانت موضوعة على بصري وبصيرتي. كل ما فهمته منه أنه وأثناء عودته من السوق التقى بأبي الذي كان بدوره متوترا جدا، وعلى أعصابه، ظن بأن لديه مشاكل مع أهله ولكنه حين سأله لم يجبه، حينها جاءت سيارة مسرعة مارة من هناك ذات طراز فخم، والباقي تعرفينه.

سألته عمّا إذا كان قد رأى السائق أو حفظ أي شيء يدل على السيارة، ولكنه أجابني بالنفي، وأنه من شدة الصدمة لم يتذكر

شيئًا، لأن الحادث كان مباغتا، أخبرني بأن الشرطة أخذت أقواله وسجلتها عنده، لذلك قررت الذهاب إلى مركز الشرطة لعلي أجد تطورات في القضية. كانت الثانية ظهرا، لم أشأ العودة إلى البيت، ومن ثم معاودة الخروج، لم تكن تخالجني الرغبة في إعلام أمي بما يحدث، فذهبت مباشرة، كنت كمن هناك من يدفعني بقوة إلى الأمر. وما أن وصلت إلى المركز انتظرت قليلا ثم دلفت إلى الداخل، كان كل ما فهمته من ذلك الشرطي أنهم يشكّون في موت أبي. هذا من خلال استجواب سكان الحي الذين أجمعوا كون تلك السيارة كانت قاصدة والدي، فهم الآن يقومون بالتحريات اللازمة. كما قام بسؤالي عن بعض الأشياء التي تخص والدي، ولكنني فور سماعي لهذه الفرضية نفيت الأمر، كون أن يكون لأبي أعداء فهو إنسان موسوم بطيبته، لم يؤذ أحدا في حياته، يعيش حياة مسالمة بعيدة عن التعقيد والفوضى، فكيف لوفاته أن تتحول إلى قضية جنائية؟ لا، مستحيل. كنت أكذب الأمر داخلي وأنفيه. خرجت من المركز منهزمة. كلامه كان كافيا ليقضي على ما تبقى لي من حيل، أنا منهكة... رجعت باكية على قدر أبي الذي أبى إلا أن يذيقني الأسوأ. حالما عدت إلى البيت كانت أمي جالسة على الكنبة التي في العادة ما يجلسون عليها تجالس صمتها، أرعبي هدوؤها بل فزعت حالما ناديتها ولم تجبني. أندفع نحوها مهرولة لأجدها نائمة. لحظتها لم أستطع الكبت أكثر، ونحت باكية أمام ركبتيها في خنق.

انقضى الأسبوع الثاني من وفاة أبي، نزعت البسمة من البيت، كلتانا تتصرف كأننا جثث متحركة أو دمى خشبية تحركها خيوط القدر المتخم بالوجع. عدت إلى المدرسة يومها، حيث قابلت المدير

الذي قام بتعزيتي، ولكنه سرعان ما حقن صوته بنبرة من الغضب، ليخبرني أنه لم يكن راضيا أبدا عن المدة التي استغرقتها حتى عدت بنبرة حادة. أردف قائلا:

- لولا أن السيد ضياء غال علينا كثيرا، لكنا اتخذنا تدابير أخرى بشأنك.

كنت مستغربة جدا من طريقة حديثه هذه.

- ماذا تقصد بأن السيد ضياء غال عليكم؟ أساسا ما شأني أنا بالسيد ضياء وما دخله بموضوعنا؟

رفع ناظريه ورمقني بنظرة راسما ابتسامة استهزاء قائلا:

- هذه هي المرة الثانية التي يكلمني فيها السيد ضياء بخصوصك من أجل أن تبقي في مكان عملك.

- المرة الثانية؟ ومتى كانت المرة الأولى إذن؟

مد ظهره على الكرسي وأشبك أصابعه مع بعض فوق بطنه المليء بالشحوم قائلا:

- إذن، أفهم من كلامك أنه لم يكن لك علم بهذا؟ أم أنك تدعين ذلك؟، ولكن لا يهم، سأذكرك بذلك إن نسيته. كان ذلك عند نهاية مدة عملك. هنا قمنا بتحويل الأستاذة الرئيسة إلى مدرسة أخرى وأنت بقيت في مكانها.

- أما المرة الثانية كانت بخصوص عطلتي أليس كذلك؟

هز رأسه بالإيجاب قائلا:

- ولكن الأمر بات غير مقبول بعد الآن. أخشى أنني سأعتذر منك ومنه، في المرة القادمة مصلحة التلاميذ فوق أي اعتبار،

ونحن في هذه المدرسة لدينا سمعتنا، أرجو أن تتفهمي ذلك جيدا آنسة ملاك.

كنت كالعاصفة يا ضياء، مُصِرٌ من أن تجعل نفسك محور حياتي البائسة بوجودك، خرجت من المدرسة. كل قواي خارت بسببك. كنت أعتقد أنني محظوظة يوم عدت إلى هنا، ولكنك في الطرف الآخر تسخر من القدر ومني، تتقن جيدا كيفية التلاعب بأقدار الناس. أنا أخسر كل ما أملك بسبب وجودك في حياتي يا ضياء، اتصلت بك يومها، كنت فرحا بمكالمتي، أخبرتك أنني أود مقابلتك وجئتني يومها متألقا كعادتك، حتى أنك تتعمد أن تتألق أكثر عندما تكون معي، لقد كنت كالدمية بين يديك، وأنت لاعب دمى ماهر، حتى أنك لم تشعرني بذلك، وكيف لي أن أعلم؟ لم أتمالك نفسي أمامك فصحت في وجهك بغضب:

- ماذا تخفي عني بعد؟! هيا أخبرني ما هي مخططاتك لحياتي القادمة؟

سرعان ما اختفت ابتسامتك العريضة التي قابلتني بها. ترمقني بتعجب كمن ضاع وسط الكثير من أعماله التي يخفيها...

لم تجبني بعد، تقربت مني مربتا على كتفي في محاولة فاشلة منك لتهدئتي، أُبعِد يديك الثقيلتين عني، أتعلم أنني بت أنفر منك ومن محاولة لبسك لملاءة الملاك أمامي؟ تتحجج بي في كل شيء حتى بت أكرهني جدا يا ضياء. أرمقه بحدة.

- لا تهرب من الإجابة. هيا أخبرني كيف يمكنك أن تفعل هذا؟ يبدو أن لديك الكثير لم تخبرني عنه.

- ماذا تقصدين؟ عن أي شيء تريدينني أن أخبرك؟!

أتعني أن هناك الكثير؟ أليس كذلك؟ لا داعي للحديث الآن فأنا أعرف كل شيء، لا تتعب نفسك.

ما يزال صامتا وعيناه شاخصتين فيّ، بينما كنت أهم بالرحيل تاركة إياه ورائي، سارع نحوي ممسكا بيدي بقوة، وهو يقول في خوف وارتباك حاد، فشل في محو علاماته من على ناظريه.

- أنا آسف، لم أكن أقصد، لقد كان حادثا... لم أتعمد فعل ذلك لكنني خشيت أن أخسرك، صدقيني لم يكن لدي حل غير ذلك، لقد كنت متوترا ولا أعي ما أفعله، أنا فعلا متأسف، هو من دفعني إلى ذلك، هو لم يتفهمني، لم يرض أن يسمعني، لم يمهلني فرصة لأشرح له...

في حالة هستيرية يحكي دون توقف، للحظة لم أفهم شيئا، ولكن سرعان ما فهمت كل الأمر، رفعت نظري إليه في محاولة رفض ما يقول. أحاول أن أجد تفسيرا آخر لما سمعته الآن، ولكنني لم أجد.

- مستحيل، أنا لا أصدق، لا، لا يمكن، أنت؟!

كان صوت بكائي عاليا، ملأ الصراخ المكان، كل محاولاته في تهدئتي وجعلي أصغي إليك كانت فاشلة، لا أستطيع تحمل صوتك، ولا أن تقترب مني، في كل مرة تلمسني فيها أحترق، جئت لأسألك عن شيء، وجدت نفسي أمام قاتل أبي... أذكر أنني كنت أضربك بشدة، أقتلع من بين صدرك صورة أبي التي قتلتها ببرود، أريد الهرب منك، لا أريد البقاء. أمسكني بقوة من معصمي يريد إدخالي إلى سيارته، ولكنني أبيت أن أدخل إليها حتى...

7

أشعر بألم فظيع يسري بعنف في كل أنحاء جسدي، ألم كبير جدا، لم أستطع تحمله، لم أتمكن من أن أتبين أين أنا بالتحديد، ضبابة فوق عيني تحجب الرؤية عني بوضوح، أجهل تماما الوقت وكم مضى علي وأنا هنا. تسارعت الأحداث في ذاكرتي تذكرت ذلك اليوم الذي غير نظرتي للحياة، كانت السيارة مسرعة جدا، لا أدري كيف لم ألاحظها، ذلك اليوم الذي أسقاني من ألمه حتى ارتويت. نزعت إبرة المصل من يدي، كانت متورمة جدا وأماكن أخرى في جسدي كذلك، جلست على السرير، كان الدوار رهيبًا، الأمر أشبه بأنني أتعلم المشي أو أقوم بتحريك قدمي لأول مرة من على السرير، فاقدة الحياة، أتقدم نحو باب الغرفة ولكنني لم أتمالك نفسي، فقدت السيطرة عليّ حتى وقعت هاوية على الأرض. لم أستطع تحريك لساني، كانت كل وظائفي الحيوية معطلة في جسدي إلا الألم، كان ينساب بغزارة كبيرة. لم تكن الصورة واضحة البتة في عيني، كنت أرى هياكل بشرية تهرول نحوي، شعرت بكف تربت على شعري، يمكنني سماع صوتك يا أمي، ولكنني لا أتمكن من رؤيتك، أود أن أخبرك بالكثير ولكنني لا أستطيع الكلام، سأخبرك بأن ابنتك الغالية كانت سببا في قتل والدها، نعم أنا من قتلته يا أمي. ولكنني سرعان ما فقدت حتى الإحساس بك. عندما أفقت لم تكوني بقربي، لماذا غادرت؟ كان ذلك الوحش بقربي، أسوأ شيء حدث في حياتي، أردت أن أغرس سكينا في قلبه ولكنني أشبه ما أكون بالمقيدة، لا أستطيع الحركة،

أفقد السيطرة على جسدي تماما. طبع لي قبلة فوق جبيني، ماسحا على وجهي بكفه، كنت شبه مستيقظة، استرسل في الكلام حينها. أذكر أنه تحدث طويلا عن أشياء كنت أجهلها وأشياء كنت أظنني أعرفها ولا أعرفها. كنت ساذجة وغبية لأغرق مع مجرم مثله، كانت حالته مزرية. تحدث كثيرا عن نفسه وعن عائلته، عن أمه وأخته التي انتحرت بسبب زواجها التعيس. عانت كثيرا من الاكتئاب الذي قررت بعده إنهاء حياتها بسببه، حيث قامت باستنشاق الغاز في شقتها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. كانت نور طفلة، وقتها نجت بصعوبة، حيث كانت نافذة غرفتها مفتوحة وغرفتها بعيدة عن المطبخ، لذلك تولت عائلته رعاية الطفلة، وبعد وفاة والدته بسكتة قلبية بسبب الحادثة واصل هو رعايتها حتى الآن، سبب له في ذلك الوقت أزمة نفسية أو ما شابه، جعلته يبالغ في خوفه على من يحيطون به، كنت أريد أن أصاب بالصمم، لم أكن أريد أن أسمع منه شيئًا.

تبريراتك كانت وضيعة جدا، تتحجج بي في ذنوبك التي تقترفها. أنا لست ذريعة تغسل بها خطاياك، قلت بأنك كنت ترغب في تلقينه درسا فقط، وأنك لم تكن ترغب في قتله، هكذا أوضحت لي عندما سردت لي كيف قتلت والدي، ثم تخبرني بأنه كان يستحق ذلك، هو من وقف عقبة في طريقنا، تتأسف بعدها، كنت متناقضا جدا يومها حتى أن نظراتك كانت غريبة، طريقتك في الحديث، تصرفاتك كانت كلها تبرر أفعالك، اهتزاز رجلك وعدم قدرتك على منع يدك من أن ترتجف، كنت فعلا وحشا بامتياز يا ضياء، إنني الآن مع الوحش الذي أحببت، مع الشخص الذي دمّر

لي حياتي. قام فزعا، يخبرني أن كل شيء سيكون بخير، وأنه لن يتركني، كما ولن يسمح لأحد أن يفرقنا مجددا. كنت أبعده عني، كمن يزيل القذارة عن نفسه، طلب مني أن أسمعه أنني ملزمة بأن أتفهمه، كنت أختنق وأنا أنظر في وجهك، لا توجد فيه أي علامات الرحمة، كنت بشعا جدا يا ضياء...

أتريدني أن أتفهم بأنك قتلت أبي من أجلي؟، وكدت أن تقتلني من أجلك؟! كانت ملامحك ترتجف، مسحت على يدي التي أبعدتها بعدها بقوة.

- أقلقتني عليك كثيرا يا ملاك، لا ترهقي نفسك بالتفكير في الماضي، عليك الآن أن تتماثلي للشفاء، أنا لم تكن لدي أي نية في إلحاق الأذى بك، كدت أجن في الأيام الماضية، مجرد التفكير بأنني سأفقدك يقتلني، لا يمكنني أن أتصور حياتي دونك، والدك لم يرد أن يعطيني فرصة لأوضح له الأمر، أنا لست نادما أبدا، وإن استلزم الأمر سأقتل كل من يعترض طريقنا، لا تقلقي، سوف نتخطى الأمر معًا.

أنت وضيع جدا يا ضياء، كيف يمكنك أن تكون بهذه القسوة؟ كلماتك تقتلني، نادمة عليك جدا، لا يوجد شيء اسمه معا، أنت مكانك مصحة عقلية، دمرتني، لقد قتلتني وما تزال لديك الرغبة في القضاء علي. صدقني، ستدفع ثمن هذا غاليا.

- لا. أنت لست في وضع يسمح لك باتخاذ القرار. الآن ذهنك مشوش ولا يمكنك أن تختاري، أنت تحبينني وهذا هو المهم. سيأتي عنصر من الشرطة ويسألك عن الحادث، لا أريد أي كلام في الموضوع، قولي أنه حادث وانتهى الأمر، والدك مات وهو مرتاح

الآن في قبره، وهذا ما سنفعله نحن، وإلا ستلحقه أمك لتؤنسه في وحدته، أو نلحقه جميعا. لا تلعبي بمصيرنا، الحل بين يدك الآن.

الآن فقط علمت لماذا رفضك أبي منذ البداية، يبدو أنه كان يعرف بأمر مرضك، كان ينظر في وجه قاتله يوميا. خرجت من المستشفى وليتني لم أخرج. عدت إلى البيت برفقة أمي، لم أكن بخير فعلا ولا أظنني سأكون. دخلت في حالة اكتئاب حاد، توقفت فيها عن العمل. بقيت في البيت هاربة من كل شيء، لكنني لم أنجح، كما أنني لا أتناول الطعام، أفرط في تناول الأدوية المهدئة بدون فائدة، أستجدي الموت في كل أطراف غرفتي دون جدوى، انتهى بي المطاف بعد آخر مرة أفرطت في تناول الأدوية المهدئة، إلى الدخول في حالة تسمم، أخذتني أمي عند طبيب نفساني يدعى فؤاد، بعد أن نصحها الأطباء بذلك، هم لا يفهمون أنه لا ينقصني طبيب، بل ينقصني شيخ يتلو الفاتحة على جثتي المتحركة، كان لا يأخذ أجرا من أمي، لأنني لم أتجاوب معه البتة، حوالي خمس حصص ولكن الأمر عينه، وجد نفسه يكلم نفسه، واصل في إعطائي لمهدات منخفضة قليلا، كان يتأملني كأنه يحاول فك شيفرة الحزن التي في عينيّ، يتواصل مع أمي من فترة إلى أخرى لمعرفة ما مررت به، حتى أن أمي لا تفهم ما يجري. أعرف أنني أرهقتك كثيرا هذه المدة يا أمي، وهذا يقتلني أيضا، أتألم لحالك كثيرا ويوجعني البؤس الذي تصارعينه، فأنت فقدتنا معا، تصارعين ذاتك لنسيان والدي وتحاولين إنقاذي وحمايتي من شيء تجهلينه. أنا أيضا أحاول حمايتك يا أمي بالقدر الذي فشلت فيه من حماية أبي ونفسي من ضياء. يومها كنت في العيادة النفسية

عند فؤاد، لم يختلف الأمر عن سابقها من المرات في شيء سوى أنك في هذه المرة أهديتني كتابا وأخبرتني بأنني يجب أن أقرأه، وحالما أنهيه أعود إليك، أظن بأنك علمت من أمي عن أمر هوسي بقراءة الكتب في الماضي. عائدة إلى البيت برفقة أمي، كانت تصر على المجيء معي في كل مرة أخرج فيها.

كانت ترمقني لأرى من على الهاتف، على الأغلب كنت أعلم من يتصل بي، ومن سواه؟ لا أنكر أنني تراجعت ألف مرة عن الذهاب إلى مركز الشرطة، كنت أتخيل أمي ملقاة على الأرض ملطخة بالدماء، لا يمكنني التضحية بك أيضا وهذا ما كان يضنيني عن الذهاب. ما زال يتصل، وضعت الهاتف على الوضع الصامت وتركته، لو يحترق لن أجيبك، ولكن حظي كان كمن وقفت فوق رأسه بومة جلبت له الشؤم. لمحته في سيارته أمام بيتنا، نزل ليسلم على أمي التي طلبت منه الدخول إلى البيت ولكنه أبى، أخبرها أنه سيعود في المساء وأنه سيعود لأمر هام، كنت أرقبه كيف كان يتصنع البراءة أمامها، وأنت من حرمتها أغلى شيء لديها، ترسم ضحكة مزيفة ومثالية، ولد بار في قلبه مجرم، ما زالت تنظر في عيني بكل وقاحة لتطلب يدي، أخبرني بأنه سيتزوجني بعد الخطبة بمدة ليست بكبيرة، قال أنه أعطاني المدة الكافية لأرتاح، ولكن حالتي الصحية تراجعت كثيرا مؤخرا، وأنه لم يعد يتحمل هذا الوضع، وأنني أتصنع كل هذا كي أتهرب منه، صعدت إلى البيت، كنت سأنهار، ترمي أمي بتساؤلاتها على كاهلي بخصوص قصده بقدومه مساء، أجبتها وأنا أصعد الدرج إلى غرفتي في خنق:

- سيأتي في المساء ليغتصب يدي.

سألتني عن رأيي في الموضوع فأجبتها قائلة:

- لا يهم رأيي

نزلت لتشتري بعض الحلويات تقدمها في المساء لزوج ابنتها،، قاتل زوجها... كانت تعد كل شيء، تريد أن تخرجني من الحالة التي أنا فيها، ولكنها لم تكن تعلم أنها تغرقني أكثر فأكثر. ها هي مرة أخرى ترحب بك، تمام الثامنة مساء، تطرق أمي الباب بقوة لتدخل الغرفة، أتدري، هي ما تزال تلتحف ثوب الحداد يا ضياء، لم تنزعه بعد، بت أخاف أن أترك باب غرفتي مفتوحا حتى في النهار... تفاجأت من كوني لم أجهز نفسي بعد، أحظرت لي في يدها صندوقا وأخرجت لي منه فستانا أحمر جميلا، طلبت مني أن أرتديه، أخبرتني بأنها هدية منك. كنت سأنهار في كل كلمة كانت تنطقها بخصوصه، كانت تظن أني مكتئبة بسبب وفاة والدي، لذلك أرادت تزويجي، طلبت مني تحضير نفسي بسرعة... لبست فستانا أسود، والذي شاركه لون قلبك هاته الأمسية، وبكل وقاحة قام بطلب يدي من أمي، أخبرته أمي أن يعتني بي، كنت سأنهار من الضحك عندما سمعتها توصيك بي، كانت عيناي متورمتين وبشرتي متشربة الشحوب بعمق. كانت أمي ترمقني من اللحظة للأخرى لكي أبتسم قليلا في وجهك، ولكن كل محاولاتها كانت خائبة، سألتني أمي عن رأيي، أجبتها بصوت متقطع منخفض مائل للهمهمة قائلة:

- أجل

كانت تلك الأجل من أجلك أنت، لكي لا أخسرك ويبتر جناحي الآخر. أخرج من جيب طقمه علبة مجوهرات كانت تحتوي على

خواتم خطبة، يريد أن ينهي كل شيء بسرعة، نظرة له باحتقار كبير:

- لقد أخذت ما تريد. يمكنك الانصراف الآن.

مر شهر كامل على يوم انتصارك عليّ هل يمكن لأحد أن تحتضر روحه شهرا كاملا؟، اليوم سأنهي كل شيء بدأته يا ضياء، ذهبت إلى عيادة الطبيب النفسي بدون موعد، كنت أرغب في أن أعيد له كتابه الذي أعاره لي آخر مرة بدون قراءته، كما أعتقد أنني لن أحتاجه بعد الآن، حملت له برقية وفاتي في يدي هذه المرة، أخبره فيها أنه ليس كل الأوجاع تداوى، لكنني لم أجده، أخبرتني سكرتيرته أنه سيتأخر اليوم وربما لن يأتي، تركت لها البرقية والكتاب، وأخبرتها أن تسلمهما له عند عودته لأمر مهم جدا.

كان يتصل بي ليذكرني بوجوده دائما.

- لم أهرب بعد.

يرد علي بنبرة استهزاء.

- لا يمكنك سوى أن تهربي نحوي، ليس مني، تعالي، لقد تأخرت عن موعدك في صالون التجميل، لذلك قررت أن أنقله لك إلى البيت، ستكونين فاتنة كما عهدتك.

- لا بأس، حتى الميت يحضرون له الذي يغسله إلى بيته.

بات كل شيء متشابها، حتى أن كل عائلتي هنا، أختي وبناتها، إسماعيل، زوجته، عمتي الكل، ما عداي أنا وأبي، لا أدري ما سكبت أخصائية التجميل فوق وجهي لتمحو البشاعة التي كانت تخرج من قلبي، لترسم معالمها فوق وجهي، لبست فستان موتي...

طلبت منها الخروج، أردت أن أستجمع الشجاعة من حيطان غرفتي من ملاك القديمة وليس الملاك المشوهة. الآن كانوا يطرقون الباب بقوة، ويخبرونني أنني يجب أن أخرج، لأن العريس قد وصل. ما إن فتحت الباب حتى دخل الكل، قبلتني أمي وضمتني إليها، أخبرتني أنني أجمل عروس رأتها، عيناها تدمعان فرحا. قبلتها وعانقتها بشدة كأنني أريد أن آخذ شيئا منها معي. بكيت على كتف توأمي، لم يسمح لنا هذا قبلا. نزلت أتأبط ذراعه، لم يكف عن التحديق بي، ركبت سيارة ليموزين بيضاء، لم أر تابوتا أجمل من هذا قط، وصلنا لقاعة الحفل، كانت ضخمة، مزينة بالكثير من الورود والأضواء البراقة. لا أدري لماذا الأشخاص يقدمون الورود في الأفراح والعزاء، ربما الأعراس هي عزاء كبير... كان الكل فرحا، لا أدري لم؟! ربما لأن الأكل مجاني والشراب مجاني، كما أنه يمكنك الرقص والتزين بدون أي قيود.

انتهت تلك المسرحية، كل شيء زائف، فرح زائف، حب زائف... اتجهت إلى غرفة تغيير الملابس التي قررت فيها أن أنتقم من كل ما مضى، حينها حررت جسدي من كل القيود التي كبلني بها ضياء، بين الكثير من الهدايا والورود، لعلي أستحق أن أموت بين كل هاته الزينة، كان الألم الموجود في قلبي أكبر من ألم الطعنات التي زرعتُها في جسدي يومها، لا يمكنني، لم أستطع العيش ولا مسامحة نفسي، الشيء الوحيد الذي استطعت فعله هو الهروب، قتل من أجلي وها أنا قتلت لأجله، سيتألم كما تألمت الآن. لا أحد سيفوز بعدما خسرت أنا. كنت خائفة من أن أعيش زواجا فاشلا تهان فيه

كرامتي، لكنني عشت أسوأ من ذلك، لم يفشل زواجنا فحسب، فشلت حياتي كلها...

***

آخر ثلاثة أشهر كنت أرقد في أحد المستشفيات في غيبوبة أفقت منها بأعجوبة، كنت أتشبث بالحياة القاسية جيدا، عندما استيقظت أخبرتني أمي أنني نجوت بمعجزة من تلك الحادثة، حيث اضطر الأطباء لاستئصال جزء كبير من الكبد الذي كان متضررا جدا، ومنذ ذلك الوقت لم أفق، لم أستطع النظر في وجه أمي، كانت محاولة فاشلة إذن، خفت جدا لحظتها، أنا متعبة لألعب مرة أخرى، كمنافسة ضعيفة هشة لا تعرف سوى الاختفاء والهرب، حتى وإن كلفها هذا الهروب حياتها، مسحت على جبيني في صوت رقيق حانٍ، تزدرد ريقها بصعوبة قائلة:

- كيف لم أشعر بك وكل هذا الحمل كان فوق أكتافك يا صغيرتي؟، كيف أمكنك أن تفعلي هذا بنا؟ لماذا كنت قاسية مع نفسك إلى كل هذا الحد؟

أشحت بنظري عنها، كنت أعلم أنها لا تعلم شيئا عما أصارع يوميا لتخطيه، فقط أعرف أنني نجوت، لتعيد الحياة لعب نفس اللعبة القذرة معي، ولكن الأمر لم يكن كما توقعته البتة، عرفت أن الشرطة داهمت المكان لليلة الزفاف وقامت باعتقال ضياء كمتهم في قضية قتل والدي، وذلك من خلال فؤاد الذي قدم لهم الرسالة والقرص الذي نسخت عليه إحدى حوارات ضياء، وهو يعترف فيها بقتل والدي، ووضعتها داخل الكتاب الذي أعارني إياه، مع بطاقة الدعوة، فاجأتني سرعته في تفحص الكتاب. ضياء

حوكم بتهمة القتل العمد، ولكن لما تبين أنه كان يعاني من اضطرابات نفسية حادة تم نقله إلى مصحة للأمراض العقلية والنفسية، والتي مكث فيها ما يقارب الشهر قبل وفاته في حادث سيارة، والتي كانت تقله إلى المستشفى بسبب أحد السيارات المسرعة التي كان يقودها سكير. أردت أن تكون نهايتي كشفا للجريمة التي استغليت فيها بأبشع الطرق، أردته أن يعاقب على فعلته، ولكن ألا تمسّ أمي بسوء؟ لم أكن قادرة على النظر في عيونها، والقول لها أنني أنا السبب في قتل والدي أو أن أطلب العفو منها.

خرجت من المستشفى بعد أن بدأت أتماثل للشفاء، وبقيت آخذ حصص المعالجة النفسية، أمي لم تفارقني منذ ذلك الوقت، كانت أقرب من أي وقت آخر، حتى أنها باتت لا تتركني أنام وحدي. هاجس فقدي ما يزال ينغص حياتها، كانت تخاف أن أتركها مرة أخرى... قامت ببيع بيتنا القديم وشراء بيت جديد، آخر حجتها في ذلك بدء حياة جديدة. علمت فيما بعد أنني أصبحت ملياديرة، حيث ترك لي ضياء أموالا طائلة، بصفتي أرملته، كان كالوحش في حياتي، لم أرد أن يربطني به شيء، جاءت أحلام بعد سماعها خبر خروجي من المستشفى، ولكنها هذه المرة جاءت لوحدها رفقت بناتها الثلاث. كان الأمر مريبا بالنسبة لي، فهي لم تعتد على الخروج إلا وأحد معها، اكتشفت أن زواجها من كريم كان مجرد وهم، كانت تغلف الزواج بأحلامها هي فقط. علمت أنه متزوج عليها منذ حوالي خمس سنوات، حجته في ذلك أنه يريد ولدا يحمل اسمه، وهي لم تستطع إنجابه له.

أخبرتني بأن والدي قد جن بعد معرفته بأن ابنتيه ليستا من صلبه، وإنما هما بذرتان من فلاح آخر. سمع زوجته تتكلم عن ذلك لإحدى بناته، وهي على فراش الموت، أما البنات اللواتي من صلبه تربين عند أناس غرباء، حيث قام هو بمنح الحنان والحب وبذل كل ما يملك لبنات لسن ببناته. حوى عاهرة في بيته، وقتل زوجته. قررت أنا وأختي أن نعتني ببناتها عندي في البيت، هنا في العاصمة، وأن نعوض كل ما فاتنا في بناتها، لأنها قررت أن تعيش هاته المرة من أجل بناتها وليس من أجل كريم. بينما أنا كنت أحاول ولا أزال صاعدة يوما بعد الآخر سلّم الأمل، كنت أذهب لعيادة الدكتور فؤاد، حسب الحصص التي برمجها لي، ويتصل بي ليذكرني بضرورة القدوم في الموعد، بعد أن كنت أتحجج بنسياني للموعد من أجل عدم الذهاب إليه، كنت بائسة ووحيدة. لم أشعر بالوحدة كما أشعر بها الآن. أشعر بفراغ كبير في حياتي، ولكنه هو الوحيد الذي تفهّمني، واحتوى عجزي، انتشلني من البئر الذي وقعت فيه، كان الخلاص بالنسبة لي. لم أنس أبدا أنه منحني حياة جديدة.

كنت عنده في العيادة ستة أشهر كاملة من العلاج، مرتاحة جدا معه وأنا أسرد عليه ألمي، كأنها أحداث بعيدة، هو جعلني أفصل بين الحياة والألم، جعلني أعيش ألم الحياة وليس حياة مؤلمة، بالرغم من أن كليهما يألم، إلا أن الأولى أهون من الأخيرة، فعندما تعيش ألم الحياة يمكنك تخطيه، ولكنك عندما تكون وسط حياة مؤلمة لا يمكنك أبدا تخطيها. بملامح هادئة كنت تطالعني بشغف، كأنني ألقمك كلماتي واحدة تلو الأخرى. كنت نهما

جدا، لم تكتفِ بالقليل أبدا، قطعت كلامي يومها بعد أن رفعت عينيك اللوزيتين من الدفتر الذي كنت تسجل فيه ملاحظاتك كالمعتاد، قائلا:

- ملاك، أتقبلين الزواج بي؟

***

حين تغرب الشمس تكون هناك بداية حتمية ليوم جديد، هذا ما سيحدث غدا واليوم الذي بعده، ولكن ماذا عن اليوم الذي يكون الشروق أو الغروب الأخير في حياتك؟ إنها نهايتك أنت. هكذا هو الحال بالنسبة لحياتك، أنت تقع وتنهض، تنتكس وتتحسن نفسيتك، تمل وترجع إليك الحياة، تصل إلى نقطة الصفر وأحيانا إلى ما دون ذلك، تنعزل عن العالم فتصير كمتفرج على خراب حياتك، أما الباقي فيعيش حياته بشكل عادي، تسأل نفسك أين أنت من القصة؟ لماذا أنت هنا ولم أنت على هذه الحال الآن؟ أنت لست هذا الشخص الذي رسمته في مخيلتك لنفسك، أنت رائع وجيد ولكن لماذا تشعر بهذا السوء؟ لماذا عصفت بك الدنيا إلى هذا الحد؟ حسنا كل هذا.. ونهضت! فماذا عن اليوم الذي تقرر فيه عدم جعل شروق جديد لحياتك المعتمة آخر ألم، آخر معاناة، الراحة...

عن تجربة، أنت وحياتك، مشاعرك ونفسيتك، ملكك وحدك أنت وفقط، وحياتك خاصة بك، لا أحد يهمه أن كنت تعيسا أو سعيدا، كيف أمضيت يومك، هل قضيت وقتا ممتعا؟، هل نفد مالك من حقيبتك الرثة؟، هل أنت على خير ما يرام؟... هل انفصلت عن صديقك الوسيم؟... أأنت بصحة جيدة؟، هل تملك

المال الكافي لدفع ضرائبك؟، لا أحد يهتم، صدقني، حتى ذلك الذي تندب حظك من أجله الآن...

العنوسة ليست خطيئة، فلو كانت كذلك لكتب عنها في الكتب المقدسة، الروح لا تعنس أبدا وإنما العمر هو من يعيش العنوسة.

أنا لا أستحي كوني عانسا، وهل عدم الزواج يعتبر عيبا؟! أنا فقط كاملة، لم ير الله لزوما لأن يكملني شخص آخر... كما أنه من جانب آخر لا يمكننا حجب الحقيقة، نعم لقد تجاوزت الثلاثينات والعشرينات، أنا لا أنكر ذلك، وما من داع لأخفيه فهو ظاهر أصلا.

الزواج يبنى على العديد من الأسس، أولها الألفة والمودة. يمكنك أن تتوقف عن حب أحدهم بينما الاحترام يستمر إلى الأبد. لذلك، احترمني ولا تحبني.

لا يمكن لأحد أن يعيش هاربا من ذاته مهما كذب عليها، أنتِ لست عالة على أحد، فقط أنتِ من يحدد كيف ينظر إليها الأشخاص، لا تكوني مؤقتة، ولا محتمة على أحد، ولن تكوني شيئا يسد به الفراغ، أو أن تجعلي من نفسك صفقة غير مربحة، أو أن يمن عليك أحد أنه تزوجك، الزواج لا يعني أي شيء، وعدم الزواج لا يعني شيئا أيضا. فقط تقبل الذات هو من يأخذك إلى فردوس روحك.

أحيانا يأتي الشخص الصحيح في الوقت الخاطئ بعد أن نكون قد فقدنا الثقة، فقدنا الحب، فقدنا الأمل... مع الشخص الخطأ. نعتقد في قرارة أنفسنا أن ما عشناه هو الحب، الحب مثل العمر يأتي مرة واحدة، القلب لا يتسع إلا لشخص واحد. لذلك نحن هنا

نكون أمام خيارين، إما أن نقف منتصرين فوق ربوة سعادتنا، وإما أن نرثي حطام سعادتنا المحترقة مع الأشخاص الخطأ. فقط انتظروا الوقت المناسب فهو من يحمل لنا أقدارنا الجميلة.

تمت بفضل الله.